علي سالم

رحلة إلى إسرائيل

الناشر : مدبولي الصغير

رحلة إلى إسرائيل

الناشــر : **مكتبة مدبولى الصغير**
٤٥ شـارع البطـل أحمد عبد العزيـز
تليفون : ٣٤٧٧٤١٠ ـ ٣٤٤٢٢٥٠
ميدان سفنكس ت : ٣٤٦٣٥٣٥
رقـم الإيـداع : ٩٣٢٠ / ٩٥

الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م

المدير الفنى : **محمد الصباغ**

خطوط الغلاف : لمعى فهيم

المراجعة اللغوية : سيد عبد المعطى

علـــى ســــالـم

رحلة إلى اسرائيل

الناشر: مدبولى الصغير

إهـــداء

شخص واحد لن أسعد بلقائه إذا قُدر لى أن أزور إسرائيل مرة أخرى، فقد غادر الدنيا بعد أن ترك فيها ما يبقيه حياً إلى الأبد، اليه أهدى كتابى .

إلى الشاعر توفيق زياد

الإنسـان ورجـل الدولة

علـى سالـم

مصرى قادم من مصر

الطريق من الفردان إلى العريش طويل وموحش، راديو السيارة لايعمل، وحدى لا يصاحبنى سوى اضطرابى ولا يؤنسنى سوى صوت الموتور المزعج. أجزاء طويلة من الطريق وأنا وحدى، لا سيارة تتخطانى ولا أخرى تقابلنى. الطبيعة جافة، لن يسعفنى أحد إذا تعطلت هنا، لا أمل حتى فى وجود قاطع طريق.

أنا مجهد، منذ الصباح وأنا أتحرك هنا وهناك لاستكمال ما ينقصنى، غيرت زيت الموتور، ضبطت هواء الإطارات، القاهرة مزدحمة، ركنت السيارة وبها حقائبى فى الجراج المواجه لأتيليه الكتاب والفنانين بوسط المدينة وذهبت لشراء بدلة، أنا فى حاجة أيضاً لعدة للسيارة، لا داعى، لن أستطيع استخدامها إذا تعطلت، على الأقل أشترى مثلثاً أحمر، أضعه على مقربة من السيارة لتنبيه الآخرين، لاداعى، قلبى يحدثنى أن سيارتى لن تتعطل، لابد أنها على وعى بظروفى الحرجة، كما أننى أثق بالأسطى عثمان الميكانيكى، الأب الروحى لسيارتى النيڤا الخضراء، التى أعتبرها أقوى ما تبقى من الاتحاد السوفيتى، قام عثمان بعمل عمرة كاملة للموتور، طلبت منه أن يستبدل أى جزء فيها يشك فى صلاحيته.

- عثمان.. أريدك أن تؤهل هذه السيارة لمشوار طويل..

* إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى إسرائيل.

***

فى نهاية عام ١٩٩٣ وبعد إعلان اتفاقية أوسلو مباشرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين أعلنت أننى أفكر فى زيارة إسرائيل بسيارتى لتأليف كتاب يجيب عن سؤالين: من هم هؤلاء القوم؟ وماذا يفعلون؟

ونشرت مقالاً فى مجلة الشباب بعنوان: السلام الآن. كنت أرى أن الاتفاق بين الفلسطينيين والإسرائيليين يشكل لحظة نادرة فى التاريخ، إنها لحظة اعتراف الأنا بالآخر، أنا موجود، وأنت أيضاً موجود، الحياة من حقى وهى أيضاً من حقك.. هو طريق شاق وطويل محطته النهائية، الحرية، وحقوق الإنسان الفرد، وهو بالطبع لن يكون مفروشاً بالورود ولكن بالنضال والصبر. غير أن الحديث عن السلام ليس كافياً لصنعه، لابد أن نتقدم نحن لتجسيده بالفعل وليس بالكلمات.

أنا مجهد جداً ومازال الطريق إلى العريش طويلاً، خرجت من وسط القاهرة فى الثالثة بعد الظهر وتمكنت من الوصول إلى أول طريق الإسماعيلية بعد ساعة كاملة، حصلت على تأشيرة الدخول إلى إسرائيل فى دقائق من السفارة، سألنى يعقوب سيتى الملحق الإعلامى: هل تريد أن تزور جهة معينة أو شخصيات معينة؟

- سيدى، سأسافر بسيارتى وفى جيبى نقودى، أريد أن أرى إسرائيل بعينى أنا.

على الأرجح هو يهودى من أصول مصرية فقد تكلم معى بالعامية المصرية، من الواضح أنه لم يتعلمها بل تربى عليها، عرفت فيما بعد أنه من أصول عراقية. غاب لدقائق ثم عاد ليقول: السفير فى اجتماع الآن، أبلغناه أنك جئت للحصول على تأشيرة وهو يبلغك أنه يريد أن يراك لخمس دقائق بعد عودتك.

- بكل سرور.

* كما اتصلت بمنفذ رفح .. هناك مبلغ ستدفعه تأميناً للسيارة.

- كم؟

* عدة مئات من الدولارات.

فى الغالب يعقوب فهم خطأ المبلغ المطلوب، اتضح أنه أقل من مائة دولار، لا أستطيع وصف القنصلية بالفخامة، ولكن أول انطباع لى كان سرعة الإيقاع، لقد غاب عني يعقوب عشر دقائق فقط كانت كافية لإعداد التأشيرة وإرسال ورقة للسفير داخل الاجتماع وتلقى الرد عليها بالإضافة للاتصال تليفونيا بنقطة الحدود فى رفح وإجراء مكالمة سريعة معهم.

الإجراء الوحيد المطلوب من الجانب المصرى لخروج سيارة من الحدود المصرية هو الحصول على الاستمارة ١٢٦ من إدارة الجمارك. وهى استمارة تكتب بها كل تفاصيل السيارة، مع كتابة تعهد بأن تعود بالسيارة مرة أخرى أو تصبح مطالباً بدفع ثمنها للحكومة المصرية. وثمن سيارتى كما حددته الجمارك هو ١٧ ألف جنيه.

سيارتى، اشتريتها بحرّ مالى، ولقد حصّلت الحكومة المصرية الجمارك المفروضة عليها، هى سيارتى مثل بنطلونى وحذائى وساعتى، من حقى أن أذهب بها للجحيم وأن أفعل بها ما أشاء.

لا .. إنها جزء من الثروة القومية لمصر، هو إجراء متبق من الحكم الشمولي الذي يرى الأشياء والبشر جزءاً من الثروة القومية للحكومة، أقصد للدولة، أقصد للشعب. وهو في الغالب إجراء لضمان عودتك أنت، مازال معمولاً به منذ ذلك الوقت الذي كان ذهابك فيه إلى المطار وركوب طائرة يتطلب موافقة رئيس الوزراء.

في طريقي لجمرك السيارات بمدينة نصر سرحت وأنا أقود سيارتي، فلم أتنبه لمدخل الكوبري الصحيح، بدأت أدور في الشوارع في حالة غريبة من السرحان، فشلت عدة مرات في اتخاذ الطريق المؤدي لمدينة نصر، هنا بدأت أتنبه للمقاومة العنيفة التي يبديها اللاوعي عندي لمقاومة الرحلة. لابد أن جهازيّ النفسي والعصبي ممتلئان بالخوف والكراهية، بالوعي أنا أريد الذهاب إلى هناك، وباللاوعي أنا رافض الذهاب. هو تراث ثقيل بطول العمر من الكراهية والعداوة.

هذا هو ما جعلني أتمسك بالسفر بالسيارة. إذا سافرت بالطائرة فسأجد نفسي هناك فجأة، وأنا أخشى هذه الفجائية، هناك ضابط من حرس الرئيس السادات توفي بهبوط حاد في القلب بعد وصوله إلى القدس في المبادرة، واتفقت كل وكالات الأنباء على إخفاء الخبر. أنا أعتقد أن الوعي عنده فشل في إقناع اللاوعي بالواقع الجديد، كانت الكراهية بداخله أكبر من أن يروّضها جهازه العصبي.

سألني مسئول الجمارك: ماهي الجهة التي تعمل بها؟

ـ لا أعمل في أى جهة .. ولا أتبع أى هيئة .. أنا كاتب حر ..

* بالطبع أنت تكتب في جريدة أو مجلة .

ـ نعم .. في مجلة كاريكاتير .

* خلاص دعهم يكتبوا تعهداً بأنهم يضمنون عودة السيارة .

انصرفت حزيناً من الجمارك ، كيف أطلب من أصحاب المجلة أن يكتبوا تعهداً بضمان عودة سيارتى ؟ هذه مغامرتى وحدى ، أتحمل وحدى مسئوليتى عنها .. ماهو الحل ؟

لماذا تذهب لمسئول كبير ؟ اذهب للموظف الصغير المختص بالعملية ، اتضح أنه لاتوجد مشكلة ، المطلوب فقط هو أن أكتب هذا التعهد ، حسناً هذا هو التعهد ، ولكن لماذا قال لى المسئول الكبير ذلك ؟ لماذا طلب منى أن آتى بتعهد من جهة أو هيئة أو مؤسسة أو شركة ؟

الواقع أنه من الصعب على القيادات الحكومية الاعتراف بأن هناك إنساناً فرداً ، الحياة ليست مكونة من أفراد وحقوق أفراد ، بل هى معان كلية ، وزارات ومؤسسات وإدارات وهيئات وموظفون ، هم فى النهاية تروس صغيرة تدور فى الماكينة الكبيرة ، من الصعب عليهم تصور أن الحياة ليست كلها قطاعاً عاماً ، وبذلك تنتفى مسئولية الأفراد وتنعدم حريتهم بالإضافة طبعاً لعدم تعاطفه مع فكرة ذهابى لإسرائيل ، هو مثلى ممتلىء بالكراهية ، ولكنه يتصور أننى فى رحلة حب وليس فى

محاولة جادة للتخلص من هذه الكراهية، سألته: عندما أحضر هذا التعهد من إدارة المجلة، ألن تطلبوا منى خطاب ضمان مالى من البنك؟

أجاب باقتضاب: هذا التعهد لاينفي أي إجراء آخر مطلوب.

الإجابة غامضة، هو لم يجب بنعم أو لا.. هو فقط حاول أن يوحى لى بأن مشكلتي كبيرة ومعقدة.. الواقع أنه ليس مطلوباً منى سوى هذا التعهد فقط.

كان الطريق موحشاً وزادته الظلمة وحشة.. أنا مجهد ومازال الطريق إلى العريش طويلاً.

***

العريش تقترب، هناك محطة بنزين في أول المدينة، أعدت ملء السيارة بالوقود، ثم واصلت طريقى، العريش تكاد تكون خالية من الغرباء في ذلك الوقت من السنة، صالة واسعة مضاءة لأحد الفنادق، هو فندق سميراميس، دخلت الفندق، طلبت أسرتى فى القاهرة، ردت علىّ ابنتى الصغرى: منى... أنا أكلمك من داخل مصر..

- من أين داخل مصر؟

* من العريش... غداً صباحاً سأذهب إلى إسرائيل.

فصرخت: من غير ما تقول لنا؟

- أنا آسف... هأنذا أقول لكم... تأكدوا أننى بخير... اطمئنوا علىّ.

فتمالكت أعصابها وقالت : طيب يا بابا... تروح وتيجي بالسلامة.

المكالمة التليفونية زادت من اكتئابي وجعلتني أكثر توتراً، أعرف أنني أسبب لبناتي ولزوجتي قدراً كبيراً من الألم والخوف، ولكني كنت على وعي بأن مصارحتهن بقرار سفري كانت ستسفر عن صدام عصبي يجردني في أفضل الأحوال من التماسك النفسي اللازم للرحلة. من الصعب، إن لم يكن من المستحيل أن نمضي إلى الأمام في هذه الحياة، دون أن نُشعر من نحبهم بقدر من الألم.

تجولت في شوارع العريش بحثاً عن صيدلية، اشتريت أدوات حلاقة ومعجون أسنان وفرشاة، هل ينقصني شيء؟ نعم... أقراص نوفلو المضادة للبرد، هي تريحني بل إنني أستخدمها أحياناً كمهدئ. أنا جائع، هناك مقهى ومطعم متلاصقان على الشارع، تناولت عشائي، فول وطعمية، هناك جهازان للتليفزيون، وضعا متجاورين، تفصل بينهما عدة أمتار، أحدهما يعرض فيلماً أجنبياً والآخر برامج التليفزيون، الصورة سيئة في الفيلم وأشد سوءاً في البرامج، والصوت مشوش مرتفع... ضجيج... ضجيج حقيقي، والناس على الرصيف يحدقون في الجهازين في صمت مستمتعين بالضجيج.

شعرت بالرغبة في دخول الحمام، أجّل ذلك إلى أن تعود إلى الفندق، الفندق قريب... لا... لن أستطيع، لحسن الحظ وجدت دورة مياه صغيرة في المطعم، دفعت الحساب وركبت سيارتي وأخذت

طريقى إلى الفندق الذى يقع على بعد ثلاث دقائق أو أقل، مرة أخرى أشعر برغبة فى دخول الحمام، أوقفت السيارة أمام الفندق واندفعت مسرعاً إلى غرفتى، يا إلهى، إننى أكاد أفقد القدرة على التحكم فى نفسى، ماذا أصابنى؟ هل أنا مريض بالسكر؟ إننى أشعر بالرغبة فى دخول الحمام كل عدة دقائق، حتى الآن لم يخذلنى عقلى ولم تخذلنى سيارتى، هل سيخذلنى جسمى؟ لا أعرف كيف نمت ولكنى استيقظت عدة مرات لدخول الحمام... ماذا سأفعل غداً فى الجمرك؟

فى حوالى الساعة الحادية عشرة من صباح الخميس ٧ أبريل ١٩٩٤ اتخذت طريقى من العريش إلى رفح، أشعر بالعطش، معى زجاجة مياه فى السيارة، اكتشفت أننى بعد أن أشرب أشعر برغبة حادة فى التبول..

الطريق من العريش لرفح طوله حوالى خمسين كيلو متراً، قسمت الطريق إلى عدة حمامات، أقصد محطات، أمر طيب أن تختار المكان الذى يناسبك على الطريق وتحوله لحمام يستخدم لمرة واحدة ثم تواصل طريقك بارتياح.

- أنت تقترب من الحدود... توقف عن الشرب..

* ولكنى أشعر بالعطش، حلقى جاف.

- لن يقتلك إحساسك بالعطش... لابد أن تبدو متماسكاً وطبيعياً فى الجمرك...

فجأة وجدتنى أصيح: اسمع... تماسك، سامع؟ أنا أطلب منك أن تتماسك.

كنت أكلم جسمى، أنا أعرف أن هناك طاقة كامنة داخل الإنسان تظهر عندما يصرخ. هذا هو السر فى الصرخات التى يطلقها مصارعو الكاراتيه وأبطال حمل الأثقال، لذلك بدأت أصرخ فى جسمى بشراسة: اخرس... اعقل... امسك نفسك... خليك راجل... فاهم؟... سامع؟... أنا لن أسمح لك أن تعطلنى... فاهم... هيه... آه... عا... عو...

من الغريب أننى بدأت أشعر بعدها أننى أكثر تماسكاً ورباطة جأش.

ها هو ذا السلك الشائك المحيط بالجمرك عند رفح، توقفت عند البوابة...

- الباسبور من فضلك.

*اتفضل...

- وحدك...؟

*نعم....

فى الساحة الكبيرة للجمرك، كانت هناك سيارات أتوبيس ضخمة، لقد أنزلت السياح فى الجانب المصرى، وستتولى أتوبيسات أخرى نقلهم إلى الجانب الإسرائيلى. أمام شباك الجوازات ملأت بطاقة المغادرة وأعطيت الجواز للضابط المختص...

- اتفضل اقعد شوية . . .

فى صالة الجمرك الداخلية الواسعة جلست على أحد المقاعد، شاب أسمر يرتدى قميصاً وبنطلوناً: أهلاً يا أستاذ على . . . ما تيجى تشرب عندى قهوة .

فى مكتبه شربت زجاجة مياه غازية وتحدثت معه عن السبب فى زيارتى لإسرائيل، أدار الحوار معى بشكل ودى ونبرة لا اتهام فيها أو شك، وقد ابتعد بذاته عن الموضوع تماماً، أخذ يكتب بسرعة عناصر الحوار فى ورقة أمامه، لم أشعر بالضيق، فأنا أقدر أن اليقظة الأمنية ستظل نشطة على الحدود المصرية الإسرائيلية لسنوات طويلة قادمة، ليس لأننا فى حالة حرب معهم، وليس لأن اتفاقيات السلام التى وقعناها معهم (كده وكده) بمعنى أنها خطوة تكتيكية تمهيداً لتنفيذ استراتيجية نهائية وهى القضاء عليهم أو علينا، ولكن لأن احتمالات إفساد السلام واردة من عناصر عديدة على الجانبين .

كثيرون من موظفى الجوازات وجهوا لى نفس السؤال، ولكنى أعتقد أن ذلك كان بدافع من الفضول وليس تأدية للواجب الأمنى، غرابة الرحلة أيقظت فيهم المزيد من اليقظة والحذر. ضباط كثيرون خرجوا من مكاتبهم ليلقوا نظرة علىّ ثم عادوا إلى مكاتبهم، فى النهاية ظهر أحد الجنود حاملاً بطاقة المغادرة الخاصة بى: أستاذ على . . . أنت رايح إسرائيل ليه ؟

ـ عاوز أشوفها . .

أشعرته إجابتي بالارتباك، صمت لحظات وهو يفكر في حيرة وقال: يعني سياحة ؟

ـ نعم .

* أصلك كاتب كلمة زيارة في خانة السبب . . كان يجب أن تكتب سياحة . .

ـ يعني زيارة، سياحة، ما تفرقش . . .

انتهت إجراءات الجوازات وأخذت جواز السفر الخاص بي مختوماً بختم الخروج، دخلت الجمارك . من الواضح أنني كنت الزبون الوحيد في جمرك السيارات منذ عدة شهور، المطلوب عمل صورة ضوئية من الاستمارة ١٢٦ بعد ختمها، الختم على ظهر الاستمارة، يجب أن يتم تصوير الاستمارة وجه وظهر . . . آه . . . أين سنجد ماكينة تصوير هنا ؟ وإذا وجدناها فمن سيسمح لي بتصوير الاستمارة ؟ . . . لا تقلق سنصورها لك . . .

جلست مع الموظف ندردش في مكتبه وهو يثبت بيانات السيارة في دفتر، ظهر موظفان من الجمرك، طلبا مني أن أتوجه لمكتب الأستاذ حمدي مدير الجمرك، رحب بي الرجل ودعاني إلى فنجان قهوة، ودار بيننا حديث طويل عن أصدقاء مشتركين في مجال المسرح، أرسل

رجاله لتصوير الاستمارة ودفع الرسوم المطلوبة، حوالى ١٦ جنيهاً مصرياً... انتهت إجراءات الجمارك.

- خلاص؟

* خلاص.

- مطلوب منى شيء آخر؟

* سلامتك.

- أخرج منين؟

* من هنا... اتفضل...

أدرت موتور السيارة وسرت فى الطريق الذى أشاروا إليه. أنا أغادر الحدود، مصر خلفى الآن، ولفترة طويلة لن أتعامل بالعامية المصرية التى أحبها.

أقترب من نقطة عسكرية إسرائيلية، موقع حدود، ببطء وهدوء شديدين اقتربت من الحاجز الأفقى، دبت الحركة فى الموقع فى حذر، تقاطيع الوجوه مشدودة تحت نظارات الشمس القاتمة، بعضهم له لحية طويلة، والمدافع الرشاشة ذات حجم أتصور أنه أكبر من اللازم، من الواضح أنهم اختاروا أفراد هذا الموقع بعناية، فالأجسام عملاقة والملابس أنيقة... أنا لست أشاهد فيلماً تقترب فيه الكاميرا من موقع عسكرى إسرائيلى، أنا الذي أقترب فعلاً، وهذا الذى أراه أمامى أشاهده من خلال

زجاج السيارة الأمامي، وليس لقطة أشاهدها من خلال شاشة السينما أو التليفزيون.

قدر عال من التوتر ساد الموقع وأنا أقترب منه، ساورني الإحساس بأن أي حركة خاطئة مني قد يترتب عليها نسف السيارة، هناك أصول للاقتراب من أي موقع عسكري، أن تقف بعيداً عنه بعدة أمتار، لم أتنبه لذلك إلا بعد أن أصبحت مقدمة سيارتي تكاد تكون ملاصقة تماماً للحاجز الأفقي ذي الألوان السوداء والصفراء، حرصت على أن تبدو يداي واضحتين على عجلة القيادة، وخلعت نظارتي الشمسية ببطء وهدوء للإيحاء لهم بالاطمئنان.

اقترب جندي ضخم الجثة من الحاجز في الوقت الذي تراجع فيه للوراء عدد من أفراد الموقع متخذين مواقع حاكمة، رفع الجندي ذراعه عالياً وأشار لي أن أعود للوراء، كانت إشارته أقرب للاستعراض وكأنه يشير لقول كبير من السيارات، كانت إشارته أيضاً تحمل معنى التأنيب على اقترابي لهذا الحد من الحاجز، عدت للوراء عدة أمتار، فتح الحاجز في اتجاهي، في تلك اللحظة كان يجب أن أكسر حدة التوتر الذي ساد المكان أكثر من اللازم، الصمت يشعر البشر أحياناً بالفزع، قلت بصوت مرتفع: هاي... هل يتكلم أحد الإنجليزية؟

- نعم... إلى أين أنت ذاهب؟

* إلى إسرائيل....

اقترب مني جندى فأظهرت له جواز سفرى، آداب السلوك فى مصر تحتم فى مثل هذه الظروف أن أغادر السيارة ولكن هنا من الخطر أن أتحرك نازلاً إلا بعد أن يطلبوا منى ذلك. وأخيراً أشار لى أن أفتح غطاء الموتور، فنزلت من السيارة، ألقى نظرة على الموتور ثم استخدم جهاز كشف المفرقعات، ألقى نظرة سريعة على محتويات السيارة فى الوقت الذى كان فيه واحد من زملائه يجرى مكالمة فى جهاز اللاسلكى. استطعت من مكانى أن أرى ساحة الجمرك الخارجية خلف الموقع تماماً على بعد مائة متر تقريباً، كانت الساحة خالية من البشر تماماً، ثم ظهر أحد الأشخاص خارجاً من مبنى الجمرك إلى الساحة، من الواضح أنه كان فى انتظارى.

طلبوا منى أن أتوجه لساحة الجمرك من خلال طريق جانبى، وليس من خلال بوابة الموقع، كان الشخص فعلاً فى انتظارى، كان يرتدى ملابس رمادية، هو من أفراد الأمن. طلب منى أن أترك السيارة وأن أسير معه، أخذت أغلق باب السيارة فطلب منى أن أتركها مفتوحة، لا خوف عليها.

دخلت معه إلى صالة الجوازات الداخلية، تقدمت ناحية شباك تجلس خلفه ضابطة شرطة شابة، أعطتنى بطاقة دخول ملأتها، سألتنى: حجزت فى أى فندق؟

* لم أحجز فى أى فندق.

- إلى أى مكان أنت ذاهب فى إسرائيل؟

* إلى أى مكان وإلى كل مكان...

- من تعرف هناك؟

* الشاعر توفيق زياد عمدة الناصرة، والروائيين إميل حبيبى وسامى ميخائيل والأستاذ ساسون سوميخ رئيس قسم الأدب العربى فى جامعة تل أبيب.

شاب يقف بجوارى يرتدى الملابس الجينز، حسبته فى البداية أحد المسافرين إلى أن تنبهت لجهاز لاسلكى صغير جداً فى يده قال لى بالإنجليزية: أنا مسئول الأمن هنا... أريد أن أتكلم معك قليلاً...

فى جمل قصيرة سريعة عرفته بنفسى والهدف من الزيارة.

- هل معك سلاح للدفاع الشخصى؟

* لا...

- هل أعطاك أحد شيئاً؟

* لا...

استدعى واحداً من مساعديه، كان يجيد اللغة العربية، قام بملء الاستمارات المطلوبة معتمداً فى إثبات البيانات على رخصة السيارة المصرية، لا أهمية لدفتر التريتك الذى دفعت فيه ٢٦٠ جنيهاً، لم يطلبوه، أخذت أتحرك من موظف لآخر، غيرت ٥٠٠ دولار إلى

شيكلات، الشيكل حوالي جنيه وربع، الدولار أقل من ثلاثة شيكلات. دفعت تأميناً على السيارة ضد الحوادث لمدة شهر، أعطاني رخصة تسيير للسيارة داخل إسرائيل، انتهت الإجراءات الإدارية.

مرة أخرى خرج معي مسئول الأمن إلى الساحة الخارجية حيث توجد سيارتي، والآن أخرج كل حاجاتك من السيارة وضعها على الترولي.

كنت أتصور أنهم سيفتشون حقائبي داخل السيارة، الواقع أنني كنت قد حولت السيارة إلى حقيبة كبيرة ألقيت في كل ركن فيها بحاجاتي في أكياس بلاستيك أخرجتها جميعاً ووضعتها على الترولي وعدت بها إلى صالة الجمرك الداخلية، تركتها لهم هناك ثم عدت معه إلى السيارة. طلب مني أن أقودها فوق مجرى في الأرض مزود بسلم يشبه ذلك النوع الموجود في محطات التشحيم، نزل السلم وفحص أسفل السيارة، صعد مرة أخرى وطلب مني أن أفتح غطاء الموتور، لابد أنه أصيب بصدمة، شكل الموتور الخارجي الذي لم ينظف منذ شهور لا يوحي بالثقة، في الغالب بحث طويلاً عن وصف للموتور لا يشعرني بالإهانة وأخيراً قال: الموتور يعلوه التراب Dusty .

الواقع أنني تعمدت ألا أغسل الموتور تطبيقاً لقاعدة بطيله ولا غسيل البرك خشيت أن أغامر بغسله بالماء فأعرض أسلاك الأسبراتير أو البوجيهات للتلف. كشف على كل أجزاء السيارة بجهاز كشف

المفرقعات، عدت إلى صالة الجمرك الداخلية من ناحية باب الخروج هذه المرة، كانوا قد انتهوا من تفتيش حاجاتي، عدت بها إلى السيارة.... واحد من موظفي الجمرك يتكلم العربية أعطاني خريطة، ألقيت عليها نظرة سريعة، لست مدرباً على السير مسترشداً بخريطة، سأكتفي بعلامات الطريق المكتوبة بالإنجليزية...

ـ خذ هذا الطريق.. ستجد نقطة حدود.. ادخل على اليمين.. ثم واصل طريقك. تنبّه للعلامات.

* شكراً..

بسيارتي ملاكي القاهرة التي تحمل أرقاماً مصرية على لوحة سوداء أخذت طريقي إلى تل أبيب.

فيما بعد قال لي ڤيكتور نحمياس وهو يهودي من أصول مصرية: اسمع، هناك سبب لم تذكره لتجوالك بسيارتك هنا بلوحة الأرقام المصرية، ولا أعرف هل أنت تعي هذا السبب أم هو كامن في اللاوعي عندك؟ أنت تتجول في شوارع إسرائيل رافعاً علماً مصرياً...

لم أفكر في ذلك، ولكني أعترف أنهم عندما تركوا لي لوحة الأرقام المصرية، شعرت بالفرحة على نحو غامض، وبدأت أستغل هذه الفرصة لعمل مظاهرة مصرية وخصوصاً في القرى العربية.. بلوحة الأرقام المصرية وصوت موتور الجيب المرتفع، كنت أصيح دون أن أفتح فمي: أيها السادة.. مصر قريبة منكم.. أنا مصري قادم من مصر.

تهــت يا ســـيدى

الطبيـعة متمـاثلة على جانبى الحدود لعدد كبـير من الكيلو مترات، تلال صـحراوية تزحف عليها الخضرة فى عناد، غير أن اللون الأصفر هو الغـالب، ولكن كلمـا توغلت فى الطريق انتصـر اللون الأخضـر وأخذ اللون الأصفر فى الانسحـاب معلناً هزيمتـه أمام إرادة البشر، ولكنه يعود لمهـاجمـة الخضـرة من وقت لآخر ومـن مسـاحـة إلى مـسـاحـة ليذكرك

بأخطر مشاكل المنطقة: المياه.

بدأت أقرأ العلامات: أشدود، عسقلان، بير سبع، العلامات مكتوبة بالعبرية وبالإنجليزية، يكتبونها بالعربية فقط عندما تقترب من المناطق العربية، استيقظت طفولتي، هذه هي أسماء البلدان التي كانت تحفل بها نشرات الأخبار في الراديو عام ١٩٤٨، هذا الطريق الذي أسير عليه الآن سارت عليه من قبل العربات والمدرعات المصرية في حرب لا يعرف أحد تفاصيلها الحقيقية حتى الآن.

المرور غير كثيف في هذه المنطقة، فقط سيارات أتوبيس سياحية ضخمة تقابلني متجهة للحدود المصرية أو تتخطاني قادمة منها، عشرات أسماء «الموشافات» والمزارع الصغيرة التي لا أعرفها ولم أسمع بها من قبل، يحتويني المجهول وأسير في اتجاه المجهول. نحن لا نستخدم حزام السيارات أثناء القيادة في مصر، ولكن لابد من استخدامه هنا. نظفته جيداً بعد أن تحول على مر الأعوام إلى حزام من التراب، تأكدت أنه صالح للاستخدام وعزمت على استخدامه بعد عبور الحدود، من الغريب أنني نسيت استخدامه ولم أتنبه لذلك إلا على مشارف تل أبيب.

الطريق الذي أسير عليه فرعي، لم أخرج بعد إلى الطريق السريع، قدت السيارة بسرعة ثابتة، أقل من مائة كيلو متر في الساعة، بدأت كثافة المرور تزداد على الطريق، سيارات كثيرة جاءت من ورائي،

حرص سائقوها على قراءة لوحة الأرقام على سيارتى، كان بعضهم قصير النظر إلى الدرجة التى جعلته يكاد يلتصق بسيارتى من الخلف.

ظاهرة غريبة، كل السيارات تضئ النور الصغير، الجو صحو والرؤية واضحة تمام الوضوح ومازلنا بعيدين جداً عن الغروب، لماذا يضيئون الأنوار؟!

جاءتنى الإجابة فيما بعد، يقولون إن ذلك يقلل الحوادث، وهو ليس أمراً اختيارياً بل أنت ملزم بذلك بحكم القانون إلى أن تأتى شهور الصيف.

الإجهاد والوحدة والسرعة الثابتة وصوت الموتور المرتفع وملامح الطريق التى لا تتغير أسلمتنى جميعاً لحالة من الخدر قريبة من النعاس.

ها هى ذى محطة بنزين أخيراً، كل محطات البنزين هنا بها كافتريا صغيرة، المحطة ليست على يمينى، هى على شمالى فى الطريق المقابل، لا بأس، توقفت على يمين الطريق، تأكدت من خلو الطريق خلفى وأنه لا أحد قادم من الاتجاه المضاد، والجزيرة بين الطريقين صالحة للعبور. درت بحذر من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ودخلت المحطة، عرفت فيما بعد أننى ارتكبت حماقة مرورية كبرى، حوادث كثيرة تحدث نتيجة لما فعلته، غير مسموح لك بعبور الطريق إلا من المفارق المخصصة لذلك. طلبت ملء خزان السيارة.

البنزين هنا ٩١، ٩٦، لا بأس، ليكن ٩١ بفارق درجة واحدة عن

البنزين الذى أستخدمه فى مصر لا داعى لإرباك الكاربراتير بنوع مختلف جداً من الوقود، لابد أننى أضعت وقتاً طويلاً فى الجمركين على الحدود، فالساعة الآن الثالثة والنصف بعد الظهر.

تنبهت إلى أننى لم أتناول طعاماً منذ الصباح، دخلت كافتريا المحطة، طلبت سندوتشاً وعلبة مياه غازية وفنجان قهوة ثم زجاجة مياه للشرب منها أثناء الطريق، دفعت حوالى ثلاثين جنيهاً مصرياً، لا داعى لأن تحسبها بالجنيه المصرى فتصاب بالإحباط، احسبها بالشيكل، إن الجنيه المصرى مع كل ما يوجه إليه من اتهامات قادر على شراء أشياء ملموسة، على الأقل شراء أربع جرائد قومية ومعارضة، بينما الشيكل عاجز عن الحركة بمفرده، هو فى حاجة دائمة لمجموعة من الرفاق، لا تستطيع أن تشترى شيئاً بشيكل واحد، للحقيقة، باكو مناديل للجيب.

لتر البنزين ٩١ ثمنه ١,٨٦٠ شيكل، أكثر من جنيهين، إلى جوار طلمبة البنزين كانت هناك سيارة نصف نقل، صاحبها يرتدى جلباباً وجاكت وعقالاً، سألته عن تفاصيل الطريق إلى تل أبيب فوصفه لى، لم أكن فى حاجة لسؤاله فقد سألت عامل المحطة من قبل ولكن يبدو أننى كنت أريد الحديث باللغة العربية.

مرة أخرى على الطريق، أكثر شبعاً ونشاطاً ويقظة، لاحظت أن سيارة ملاكى تسير خلفى على بعد ثابت وبنفس سرعتى، من خلال المرآة تبينت ركابها، كانوا أربعة يرتدون الملابس العسكرية، اختفت

السيارة بعد فترة من الوقت.. عندما كنت أشك في اتجاه السهم في علامات المرور خصوصاً عند المفارق كنت أتوقف لأسأل بعض سائقي السيارات، إلى أن خرجت إلى الطريق السريع.

***

لست غبياً إلى الدرجة التي أتصور فيها أنني أتحرك بعيداً عن أعين الأمن الإسرائيلي في دولة هاجسها الأول هو الأمن. كما أكون متخلفا لو تصورت أن حركتي داخل إسرائيل كانت بعيدة عن أعين وآذان المخابرات المصرية، أحياناً يكون الدليل الوحيد على التواجد الأمني هو نفسه الغياب الواضح للأمن. سيارة غريبة بلوحة أرقام سوداء. وهو لون اللوحات الخاصة بالضفة الغربية لا تستوقفها أي سيارة شرطة طول الطريق من رفح لتل أبيب؟

وضابطة الشرطة أيضاً في الجوازات كان لديها ما يسمى «بترقب وصول»، لقد أدارت حوارها معي ببرود وعدم اكتراث وكأنها لاتعرف عني شيئاً، ولكني لاحظت أنها كانت تهمهم بصوت خافت بأغنية وهي تكتب، وهي حيلة من العقل يلجأ إليها لمداراة الإحساس بالانفعال في مثل هذه الظروف «عليّ أن أبدو غير مهتمة أو منفعلة، سأكون طبيعية، طبيعية وغير مكترثة لدرجة أن أغني.. ها أنت ذا تسمعني أغني».

مسئول الأمن أيضاً في الجمرك ويسمى «ناظر المحطة» كان يترقب وصولي، وهذا ليس سراً فقد أبلغتهم السفارة بموعد سفري، ولكن رجل

الأمن لا شأن له بالسياسة أو بالديبلوماسية أو بالحرب والسلام. إن قاعدة عمله هي الدقة والشك والارتياب، لذلك لم يقل أهلاً وسهلاً.. اتفضل.. نحن نعرف أنك قادم في رحلة سلام، بل أخضع سيارتي وأمتعتي لأعلى درجات الفحص والتفتيش في إطار من البساطة والتهذيب.

كلنا نذكر المبادرة التاريخية للرئيس السادات، لقد طرح الأمن الإسرائيلي يومها سؤالاً غريباً، ماذا لو هبطت طائرة السادات ثم فتحت أبوابها وخرجت منها مجموعة من رجال الصاعقة المصريين ليحصدوا بالرشاشات كل زعماء إسرائيل المحتشدين على أرض المطار، بالطبع هو احتمال سخيف وبعيد بل ومستحيل، ومع ذلك أخذوه في الاعتبار وتم وضع عدد من رجال العمليات الخاصة في مواقع فوق مباني المطار للتعامل مع هذا الاحتمال حال حدوثه. هناك قاعدة واحدة في الأمن: لا مفاجأة.

على الطريق السريع، لن أنحرف يميناً أو يساراً إلى أن يدخل بي الطريق إلى تل أبيب، سأقود سيارتي في الشوارع إلى أن أجد مكاناً مسموحاً فيه بالانتظار فأركن السيارة ثم أنزل باحثاً عن فندق.

تل أبيب تقترب، بشر يقفون على محطات الأتوبيس المخصص للنقل الداخلي، هناك مخارج كثيرة من الطريق لها أسماء لم أسمع بها من قبل، لست مدرباً على استخدام الطرق السريعة، هي لا تدخل المدن بل

تدور حولها، وهكذا وجدت نفسي أتجاوز تل أبيب على طريق حيفا، بالتعاسة الجهل، مدن صغيرة على يساري وعلى يميني وأنا عاجز عن معرفة الطريق إليها، حسناً توقف. قلت لنفسي. على اليمين بعيداً عن الطريق إلى أن تأتيك سيارة شرطة، أو تتمكن من سؤال أي مخلوق، لا يوجد مكان أستطيع الوقوف فيه، هناك إصلاحات على الطريق لا تترك مكاناً للوقوف، الطريق سريع ومجنون أيضاً.

بدأ الظلام في الهبوط، الجميع يقودون سياراتهم وكأنهم يفرون من كارثة، أضيف الظلام للمجهول فاستولت عليّ حالة من الاكتئاب تتخللها ومضات من المتعة الوحشية.. يا إلهي أنا مجهد وتائه في بلد غريب وأحلم بسرير وبدخول الحمام. عند إحدى إشارات المرور وفي تقاطع سألت سائق سيارة بيك أب بجواري: من فضلك.. أريد الوصول إلى أي مدينة.. هل حيفا بعيدة؟

- ساعة من هنا..

* ما هي أقرب مدينة..؟

- نتانيا.. على بعد ١٢ كيلو تقريباً..

* حسناً أريد الذهاب إلى نتانيا..

- اتبعني..

استدعت ذاكرتي مقالاً كنت قد قرأته في مجلة الدوحة منذ سنوات

طويلة، تحقيق مصور عن زيارة قام بها أحد الفلسطينيين من محررى المجلة، لإسرائيل ولأهله فى الضفة الغربية، أذكر أنه زار نتانيا.. جملة واحدة قفزت إلى ذهنى «وعلى شاطىء نتانيا الجميل» جملة أخرى شاحبة بدأت فى الصعود إلى السطح فى ذاكرتى «وعلى شاطىء نتانيا الجميل وجدت شرطية حسناء بملابس الاستحمام تضع مسدساً حول وسطها».

يبدو أن طرافة الصورة حفظتها فى ذاكرتى. بالتأكيد الشاطىء مازال موجوداً فى مكانه، ولكن ماذا عن الشرطية الحسناء؟ هل مازالت موجودة فى مكانها بملابس الاستحمام منذ تاريخ كتابة المقال؟ أو أنها ارتدت ملابسها وانصرفت عائدة إلى منزلها، أم أنها نقلت لشاطىء آخر.. أو لعلها تركت الخدمة.. غداً صباحاً بإذن الله سنبحث عن الإجابة على الشاطئ..

سرت خلف الرجل عدة كيلو مترات، أشار لى بأنوار السيارة الخلفية إلى أنه سيتوقف على اليمين، توقفت خلفه، نزل من السيارة وأمسك ورقة وقلماً ورسم لى خريطة سريعة: عند إشارة المرور القادمة، لا تتبعنى، انحرف إلى الحارة الشمال، أما أنا فسأواصل طريقى إلى حيفا، بعد الإشارة ستدخل يساراً، ستجد نفسك فوق كوبرى، استمر فى السير.. ستجد نفسك فى نتانيا.. هناك فنادق كثيرة على الشاطئ.

- ثلاث نجوم؟

ستجد بالقرب من الشاطئ ميداناً كبيراً غير مسموح فيه بالسير بالسيارات .. على يمين الميدان ستجد فنادق ثلاث نجوم .. على يساره توجد فنادق خمس نجوم ..

عند إشارة المرور ودعني الرجل بإشارة من يده ، يساراً بجوار الإشارة ، ثم الكوبري ، الحمد لله أنا أسير الآن في شوارع مدينة ، بشر ، أرصفة ، محلات ، عمارات ، أضواء ، الناس هنا تسير وتقود سياراتها في وداعة ، نتانيا مدينة سياحية ومصيف يتسم بالهدوء والجمال ، ولكي تعرف حجم روقان أهلها أقول لك : أنهم يعملون في صناعة الماس .

على اليمين فوق مكان مرتفع تقف سيارة شرطة ، توقفت عندها : أيها السادة .. أنا مصري أبحث عن فندق .

قلت لهم ذلك وأنا أمد لهم يدي بجواز سفري ورخصة القيادة المؤقتة .

- سر خلف هذه السيارات ، ستقودك لشارع مواز للشاطئ .. ستجد على جانبيه عدة فنادق .

سرت خلف السيارات ، درت معها يساراً ثم يميناً ، وفجأة وقعت عيناي على الكلمة السحرية : فندق ، حدثت معجزة أخرى ، وجدت مكاناً على الرصيف أمام الفندق صالحاً لوقوف السيارة .

دخلت الفندق ، سألت عن أقرب بيت للراحة ، موظف الاستقبال من

أصل تونسي، عدة كلمات عربية وأخرى إنجليزية: هل مسموح لى بالانتظار فى المكان الذى أوقفت فيه سيارتى؟

ـ نعم.

انزاح عنى هم ثقيل، واصلت السؤال: أريد أن أحجز ليلتين.. بكام؟

ـ بستين دولاراً فى الليلة..

* ياه.. ستين ؟!.. أليس هذا فندق ثلاث نجوم؟

ـ لأ.. أربعة..

* يبدو ثلاثة.. حسناً.. احذف نجمة من أجلى.. لقد تصورت أن أجر الفندق هو ثلاثون دولاراً فقط

ـ إنها أسعار حددتها الحكومة..

* وهل تصدق الحكومة يا رجل..؟.. ها ها..

يبدو أن النكتة لم تعجبه وظل وجهه جامداً..: حسناً.. خفّض لى شوية.

ـ خمسة وخمسين..

الواقع أنه لو طلب مائة دولار لدفعتها على الفور، إن أول ليلة فى بلد غريب تكلف الكثير. ملأت استمارة الفندق وصعدت إلى غرفتى، لم أعط لعامل الفندق الذى أحضر حقائبى بقشيشا فأنا لم أعرف بعد قواعد

البقشيش هنا، وعندما تعلمتها كنت قد غادرت الفندق. أخيراً هذا هو السرير وهذا هو الحمام، خلعت ملابسي. فوجئت برنين جرس التليفون.

- ألو..

- هنا شخص فى انتظارك يريد التحدث إليك..

يانهار أبيض.. لحقوا؟ بالتأكيد عرفت الصحافة الإسرائيلية بوسائلها الخاصة الفندق الذى أنزل فيه، أجبته لقد خلعت ملابسي... سآخذ حماماً وأنزل بعد عشر دقائق.

أخذت دشا ساخناً وغيّرت ملابسي ونزلت لصالة الفندق، لم تكن الصحافة في انتظارى، الشرطة كانت أسرع، وجدت فى انتظارى ضابط شرطة يحمل استمارة النزول فى الفندق.

- نعم يا سيدى..

* هناك أشياء متروكة فى سيارتك.

- هى كتب..

* نعم أعرف أنها كتب..

راجع بيانات جواز السفر على استمارة الفندق، اكتشف رقماً غير صحيح: هذا الرقم غير صحيح.

- نعم يا سيدى، هو غير صحيح.. والمسئول عن كتابته خطأ هو

موظف الاستقبال وليس أنا.. لم أملأ أنا هذه الاستمارة... لقد ملأت استمارة أخرى.. أهي.. ولقد كتبت بيانات الجواز صحيحة كما ترى..

سأله بالعبرية فأمن الرجل على كلامي في خجل، أحسست تجاه الرجل بقدر من الشماتة والتشفي بعد أن عاقبته السماء سريعاً على عدم إجرائه التخفيض المناسب لي، خصوصاً في هذا الوقت الميت سياحياً.

تناول الضابط ورقة بيضاء وكتب عليها عدة جمل باللغة العبرية بحروف كبيرة ثم وضع توقيعه عليها، وقال لي: الصق هذه الورقة على زجاج السيارة الأمامي من الداخل.. سأقرأ لك ما هو مكتوب فيها: صاحب هذه السيارة مصري مقيم في الفندق.. أي مخابرة تتم مع مكتب الاستقبال.

شكرته وألصقت الورقة على الزجاج.. حسمت هذه الورقة الموقف تماماً، كانت كافية لإبعاد رجال الشرطة والفضوليين.

في مساء اليوم التالي كنت جالساً في كافتريا الفندق أحتسي القهوة الفلتر السوداء وأدردش مع بعض السائحين الهولنديين عندما ظهر شخص وسيم يتكلم العربية، قال لي: أنه مسئول شركة السياحة التي أتت بهذه المجموعة، أعطاني أسماء عدد كبير من الفنادق في مدن كثيرة وأعطاني عناوينها، وفجأة سألني باهتمام: ولكن لماذا نتانيا..؟

في تلك اللحظة ارتسمت في ذهني على الفور صورة لمسئول في

مكان ما، لم يغادر مكتبه بعد أن كُلف بالإجابة عن هذا السؤال: لماذا ذهب على سالم إلى نتانيا وليس إلى تل أبيب..؟

أجبته وأنا أحتسى القهوة باستمتاع: تهت يا سيدى.



يافا

بالأمس بعد وصولى إلى نتانيا بالسيارة وفى طريقى إلى الفندق، لاحظت أن صبياً صغيراً يقف عند إشارة المرور، ويقوم فى حركة سريعة بلصق ملصق صغير «ستيكر» على زجاج السيارات الخلفى. بالتأكيد سيلصق هذا الملصق على سيارتى، ترى ما هو الشعار المكتوب عليه؟ سيكون الموقف بالغ السخرية إذا اتضح أنه يحمل عبارة تخلصوا

من العرب.. أو أى شئ من هذا القبيل. ولكنى لاحظت أنه يقوم بتبادل عبارة سريعة مع سائقى السيارات، استنتجت أن تكون: هل تؤيد ذلك؟.. أو هل توافق على ذلك؟

لأن بعض أصحاب السيارات كان يشير بأنه غير موافق، عند ذلك كان الصبى ينتقل بسرعة لسيارة أخرى، الحمد لله، لم أتعرض للاختبار إذ فتحت الإشارة فتحركت من مكانى، فى الإشارة الثانية وجدت صبياً آخر يحمل نفس الملصقات، قال لى جملة بالعبرية فرددت عليه بالإنجليزية: ماذا تعنى هذه الجملة؟

- الناس فى الجولان.

* مالهم؟

يبدو أن إنجليزيته لم تسعفه فعدت أسأله: هل تريدهم هنا..؟

* نعم.

حمداً لله، هو إذن يريد الانسحاب من الجولان.

- أوكى.. حطها.

وهكذا ساهمت فى العمل السياسى قبل أن تطأ قدماى أرض إسرائيل، اكتشفت بعد ذلك أن الجملة المكتوبة هى «مع الجولان» وهى صياغة غامضة تكتسب معنى مضاداً لما يقصده عندما توضع على سيارتى. هو مع الجولان بمعنى أنه لا يريد الانسحاب من هناك، وأنا كعربى مع

الجولان بمعنى أننى أريده أن ينسحب من هناك، عموماً ولعدم إحداث المزيد من التعقيدات السياسية في المنطقة خلعت الملصق.

المهم في هذه اللقطة السريعة أن هذا الصبى الصغير لم يكن يشعر بالضيق والإحباط عندما كان يشير إليه أحد أصحاب السيارات بأنه لا يوافق على الشعار، بل كان ينتقل بسرعة لسيارة أخرى، دون أن يصيح به: لماذا لا توافق يا وغد..؟ إذن أنت عميل للسوريين والعرب.

هذا هو ما يجب أن نركز عليه في تربية أطفالنا، من حق البشر أن تكون لهم آراء وأفكار مختلفة عما نعتقده نحن، دون أن يكون ذلك مدعاة للعنف والعدوان، ولتتصارع الأفكار مع الأفكار، والحجة مع الحجة من أجل صالح الأمة.

الأفكار المطروحة هنا ليست محبوسة في مكاتب الأحزاب وأعمدة الصحف، ستراها وقد تحولت للافتات يحملها مجموعة من الشباب والشابات عند نواصى الشوارع. وأحياناً ستجد مظاهرة من شخصين يحملان لافتة تعلن عن موقفهما السياسى، هناك مجموعة شهيرة تقف عند ناصية معينة في القدس يرتدى أفرادها اللون الأسود وتحمل شعارات تقول: اتركوا الضفة الغربية.. اتركوا الجولان.. اتركوا غزة..

وستجد مجموعة أخرى وسط القدس ترفع شعاراً يقول: الضفة الغربية تبدأ من هنا.

بمعنى أننا سنتخلى عن هذا الجزء من القدس عندما نتخلى عن الضفة الغربية .

الحزب الواحد والفكرة الواحدة وخاصة عندما تكون براقة ومثالية جداً. يخفيان عشرات التناقضات الحادة التى لا تتسق مع قوانين الواقع ومعطياته، ولذلك لابد أن تتحول هذه التناقضات فى النهاية إلى انفجار كبير.. ثم إلى صواريخ وطائرات ومدرعات وقتلى.. ماتوا، أو قتلوا مجاناً من أجل لا شيء أو بسبب أفكار غبية.. واسألوا العراق واسألوا الكويت واسألوا شعب اليمن.

***

قبل سفرى إلى إسرائيل جاءنى صديق قديم وقال لى: حضرت اجتماعاً منذ قليل تقرر فيه تصفيتك فنياً وثقافياً وأدبياً واجتماعياً إذا ذهبت إلى إسرائيل.

شعرت بالقرف، ما هو الرد المناسب فى هذه الحالة؟ عقول تربَت على التصفية، إما أن يقوموا بتصفية مخالفيهم فى الرأى بوصفهم أعداء وإما أن يقوم أعداؤهم بتصفيتهم، وهى عقول جبانة لا تتصور أن بعض البشر لا يخشون التهديد والوعيد بل يزيدهم الابتزاز إصراراً على التمسك بممارسة حريتهم فى التفكير والفعل.

رددت عليه: قل لهم ... لقد ذهب بالفعل.. اتفضلوا نفذوا تهديدكم.

صديق آخر كتب بعد أن عدت: لو كنا حكاماً لحاكمناك.

وأنا أرد عليه: الحكم يتطلب الكفاءة ونصيبكم منها صفر، والمحاكمة تستلزم العدل وأنتم مدربون على الظلم. أنتم صدفة تاريخية حدثت وانتهت بنهاية الفاشية في العالم كله. وأنتم ضدي لأنه لا شيء لديكم تقدمونه للسلام ولم يكن عندكم ما تقدمونه للحرب سوى الضعف والأكاذيب.

السلام يصنعه الشجعان وأنتم جبناء، ويطلبه الأحرار وأنتم عبيد، ويحرص عليه الأذكياء وأنتم بلهاء، ويعمل من أجله الأقوياء وأنتم ضعفاء.

يا رجل، كيف تحلم بحكمي ومحاكمتي وأنتم حتى الآن لا تعرفون الفرق بين حرية التعبير وقلة الحياء ولا تعرفون الفرق بين الصحافة والجريمة؟!

***

من تليفون الغرفة اتصلت بالمهندس سليمان الفحماوي في منزله بقرية أم الفحم القريبة من الناصرة، هو مهندس صاحب مكتب إنشاءات، كما يعمل في مجال النشر تعرفت به في كافيتريا (كارولين) عندما كان في زيارة لمعرض الكتاب في القاهرة.

ـ معقول الكلام ده..؟ بتتكلم منين؟

* من نتانيا.. فندق متروبول جراند بشارع جاد خامنس..

ـ جاد خامنس.. هل تعرف من هو؟

* هو شارع طبعاً..

ـ لا.. هو لاعب كرة شهير... لقد اتفقنا من قبل على أنك ستنزل ضيفاً عندى.

* بإذن الله.. سأقضى ليلتين فى نتانيا بعد ذلك سآتى إليك.. ثم أذهب إلى الناصرة لزيارة سميح القاسم وإميل حبيبى وتوفيق زياد.

ـ هل تعرف أن مكتبى قريب جداً من نتانيا.. بينى وبينك عشر دقائق فقط..

* جميل.. اسمع يا سليمان.. اكتشفت أن رقم تليفون الدكتور ساسون سوميخ ليس معى.. هل تتفضل وتبحث لى عنه ثم تتصل بى فى الفندق؟

***

نزلت إلى شوارع المدينة، كل شواطئ العالم تكاد تكون متشابهة، ولكنهم هنا فى نتانيا حرصوا على إضافة إبداع البشر إلى إبداع الطبيعة، ميدان كبير تتخلله الزهور والنباتات والمقاعد الحجرية وعشرات المطاعم والمقاهى الصغيرة تحيط بالمكان فى تناسق جميل، أما الشاطئ نفسه فأنت تنزل إليه من خلال منشآت وسلالم حجرية تتخللها الخضرة وكأنها

«أمبلاج» للشاطئ أو كأنهم يقدمونه لك على صينية حجرية كبيرة .

تناولت عشائى ، حبل النجاة هنا وسكة السلامة هو الشاورمة ، رغيف الشاورمة بحجم ميدان صغير ، بعد أن تتسلمه ستجد أمامك عدداً من الأطباق الكبيرة ممتلئة بأنواع عديدة من الطرشي والسلطات والمخللات ، خذ منها ما تشاء في طبق صغير . .

وفي محل حلواني صغير جلست أتناول القهوة الاكسبرسو مع قطعة جاتوه ، من حقى طبعاً أن أدلل نفسي بعد هذا المشوار الطويل .

من الجميل في هذا العصر أن يجد البشر مكاناً فسيحاً يمشون فيه ويجلسون دون أن تزاحمهم السيارات ، لا أصوات عالية لا ضجيج . . . لاحظت أنني الكائن الوحيد الذى يمشي بمفرده في الميدان ، لم أكن الوحيد الذى لاحظ ذلك . . فجأة توقفت سيدة تملأ وجهها الأصباغ بشكل لافت للنظر : هاى . .

- هاى . .

* من أين ؟

- من مصر . .

* بمفردك أم ضمن وفد ؟

- بمفردى . .

* عمل أم سياحة ؟

ـ عمل..

* ألا تريد أن تجلس في بار جميل.. هنا بار جميل على الناصية.

ـ شكراً.. أنا أتمشى قليلاً وسأعود للفندق..

* ألا تريد امرأة؟

شعرت بالحرج وببعض الخوف، أمر فظيع أن يقول رجل لامرأة أنه لا يريدها.. حتى لو كان لا يعرفها، حتى لو كانت مهنتها هي أقدم مهنة في التاريخ. لابد أن تكون إجابتي غير مهينة ومقنعة في الوقت نفسه، قلت لها متلعثماً: الواقع أنني لا أريد ولكن لأسباب تتعلق بي، وليست خاصة بك.. أقصد أنني آسف..

قالت وهي تبتعد: إذا غيرت رأيك فأنا موجودة في البار على الناصية..

أعجبتني طريقتها في إنهاء اللقاء بما يحفظ لكل طرف كبرياءه... في هذه المسائل وفي الصراع السياسي لابد من ترك الباب مفتوحاً. الواقع أنه لم يكن فيها ـ شكلاً وموضوعاً ـ ما يجعلني أغير رأيي أو يجعل أي شخص آخر يغير رأيه..

عندما عدت إلى الفندق وجدت رسالة من سليمان ترك لي فيها رقم تليفون الأستاذ ساسون سوميخ، اتصلت به في المنزل فردت عليّ زوجته مرحبة فتركت له رسالة أبلغه بعنواني ورقم تليفوني ثم نمت.

***

ساسون سوميخ هو رئيس قسم الأدب العربي واللغة العربية في جامعة تل أبيب، وواحد من أشهر أساتذة الأدب العربي خارج مصر، حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد، يهودي عراقي جاء إلى إسرائيل قبل أن يبلغ العشرين من عمره فعلّمه إميل حبيبي السياسة وعلمه توفيق زياد الشرب على حد قوله. والأدب العربي ليس عشقه ومهنته فقط بل هو رهانه الأكبر على تحقيق السلام بين العرب واليهود. أوقف عمره كله على دراسة الأدب العربي وقدم لقومه وللعالم كله دراسات مهمة عن عملاقين مصريين كبيرين هما نجيب محفوظ ويوسف إدريس. كما قدم لجامعات العالم العشرات من تلامذته من المتخصصين في الأدب العربي واللغة العربية والعامية المصرية أيضاً.

اقترابي منه أعطاني انطباعاً قوياً بأن اهتمامه الطاغي بالأدب العربي لم يكن فقط معركته الطويلة لتحقيق السلام بين العرب واليهود بل لتحقيقه بينه وبين نفسه، فكم هو معذّب لمثقف داخل إسرائيل أن يكون عربياً ويهودياً في الوقت نفسه. كم هو مؤلم أن تجد نفسك - لأسباب ليست من صنعك - عدواً لنفسك. كم هو شاق أن تتصارع دولتك مع هويتك، لذلك كان وقوفه الواضح إلى جانب العرب الفلسطينيين السبب في اتهامه من بعض الأطراف أنه عميل لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وأنا لم أتشرف بمعرفته منذ زمن بعيد، ولم يسبق له أن تناول عملاً

من أعمالي بالدراسة ولكني قابلته في القاهرة، قبل سفري إلى إسرائيل بحوالي شهر، عرفني به الباحث (ريموند ستوك) وهو من الأعضاء الدائمين في ندوة نجيب محفوظ، فدعوته إلى العشاء هو والروائي سامي ميخائيل وواحدة من تلامذته أذكر أن اسمها الأول هو نانسي.

كانوا في حالة اكتئاب شديد في أعقاب جريمة الحرم الإبراهيمي البشعة التي أصابت خطوات السلام بنكسة مروعة، أبلغته أنني سأزور إسرائيل قريباً وأنني كنت على وشك السفر لولا تلك الجريمة البشعة.

الواقع أن ساسون لم يصدقني وتصور أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد رغبة سأعجز عن تحقيقها فقد قال له عدد كبير من المثقفين أنهم سيزورون إسرائيل ولم يتمكنوا من ذلك..

***

في الصباح اتصل بي ساسون وأبلغني أنه سيأتي بعد قليل، بعد ذلك اتصلت بي (كارين) وهي شاعرة وأستاذة في قسم الأدب الإنجليزي بجامعة تل أبيب، أنا أعرف كارين منذ عام ١٩٨١، كنا معاً لمدة أسبوعين في (سالزبورج سيمينار) تحت إشراف هيئة فولبرايت ضمن حوالي ٦٥ أستاذاً للأدب الإنجليزي والأمريكي من كل أنحاء العالم. كان معنا أيضاً الدكتور عبد العزيز حمودة الكاتب المسرحي والناقد والعميد السابق لكلية الآداب. بعد ذلك بتسعة أعوام قابلتها في جامعة ميتشجان.

قالت كارين: علي... هل معك ملابس كافية.. ابني طولك وفي حجمك بالضبط..

- أشكرك يا كارين.. معى ملابس كافية... بل أكثر مما أحتاج.

فى الغالب أبلغها ساسون أننى جئت بسيارتى دون أن أبلغ أهل بيتى، معنى ذلك أنه ليس معى ملابس، الواقع أننى قد رسمت قبل السفر خطة محكمة لشراء ملابس وإخفائها فى مكان أمين بحيث أخرج من المنزل ساعة السفر بقميص وبنطلون، للحقيقة والتاريخ، قمت بتهريب حذاءين فقط بالرغم من الرقابة الشديدة التى كانت مفروضة علىّ.

جاء ساسون ومعه واحد من تلامذته، قدمه لى: جابى.. جابرييل روزنباوم... رسالته للدكتوراه عن المسرح العربى.. يقوم بتدريس المسرح العربى فى الجامعة العبرية بالقدس.. وهو أيضاً يقوم بتدريس مسرحيتك «إنت اللى قتلت الوحش».

- أهلاً يا جابى.. وجهك مألوف لدى.. هل رأيتك من قبل؟

* فى الغالب شاهدتنى فى ندوة نجيب محفوظ.. أو فى كافتريا الأوديون.. أو مع ليدين الرملى.. أنا أقوم الآن بترجمة مسرحيته «سعدون المجنون» إلى اللغة العبرية..

جابى يجيد الحديث بالعامية المصرية، بل يعرف كل أسرارها وهو شاب عجوز لا توجد فى رأسه شعرة سوداء، رقيق، خافت الصوت يذكرك بالمصريين فى أفضل حالاتهم إذ ترتسم على وجهه ابتسامة دائمة لا تفارقه حتى وهو يحاضر.

طلب منى جابى أن أزوره فى الجامعة وأتكلم مع طلبة القسم فوعدته بذلك عندما أذهب إلى القدس. انصرف جابى بسيارته فخرجت مع ساسون متجهين إلى تل أبيب، ذهبنا إلى الجامعة، رفض حرس البوابة دخول سيارتى إلى حرم الجامعة فلم يكن معنا تصريح بذلك، أوقفتها فى مكان مخصص للانتظار عبر الشارع تابع أيضاً للجامعة، ثم صعدنا إلى مكتب ساسون، لا أحد فى الجامعة فالأساتذة مضربون عن العمل من حوالى شهرين من أجل رفع رواتبهم.

الطريق من تل أبيب إلى يافا حوالى ١٢ كيلو متراً تقطعها على كورنيش البحر، وهى مدينة يسكنها العرب واليهود، هل أنا فى حاجة لأن أقول إن يافا مدينة جميلة ومن أقدم الموانىء فى التاريخ.

فى مدخل المدينة يوجد بناء كبير أشبه بالحصن يطل على الشاطئ من فوق تل مرتفع.. تناثرت حوله بعيداً عن الشاطئ بيوت حجرية تظنها متاحف لفرط جمالها، أما المدينة من الداخل فبيوتها متواضعة غالبيتها من طابق واحد أو طابقين.

فى الجزء السياحى تشعر بنسيم البحر المنعش وقد اختلط برائحة التاريخ القوية. فى نتانيا وفى تل أبيب تشعر أنك فى أماكن شيدت بالأمس فقط، أما هنا فى يافا فأنت تشعر بجلال وعظمة القديم.

حتى الآن تحركت من خلال ثلاثة مواقع ولكنى بدأت أكتشف أخطر أسرار السلام: السياحة.

السياحة تتطلب إبداعاً لا يقل عن إبداع الحرب .. وإذا كانت الحرب هي فن تدمير الحياة، فإن السياحة هي فن الحفاظ عليها. هي عبقرية الإدارة والانضباط والحفاظ على البيئة وتجميلها وصيانتها بكل ما أوتي البشر من جهد وقوة وتصور للجمال. السياحة تتطلب انضباطاً في آليات المجتمع نفسه، ولكنها بدورها تعود وتساهم في تدعيم هذا الانضباط بعد أن يتحول العائد منها إلى مصدر للقوة والخير لكل أفراد المجتمع. إذا كانت المعرفة هي مصدر الثروة الوحيد على الأرض الآن، حيث إنه من خلالها نستطيع استغلال مصادر الثروة الطبيعية في الأرض والبحر والهواء على نحو يأتي بالخير للبشر، وإذا كانت النصيحة القديمة هي: اعرف نفسك، فلابد أن تكون النصيحة الجديدة هي: اعرف خريطة السياحة في بلدك وقدّمها للآخرين، قدمها محاطة بالإبداع والجمال، وليكن سلوكك في عظمة آثارك.

في يافا وفي أول شارع «يفت» الشارع التجاري الوحيد في المدينة يوجد مخبز صغير تحول إلى ظاهرة ومزار سياحي، صاحبه يسمى «أبو العافية» ستجد طوابير من السياح واقفين أمامه على الرصيف يأكلون على الواقف قطعة بقلاوة أو كرواسان أو كحكة، لقد حولوه بواسطة الدعاية في المنشورات السياحية من مجرد شخص يتقن مهنته إلى مصدر من مصادر الثروة الطبيعية، وتم استغلال اسمه سياحياً وكأن من يأكل عنده سيزداد عافية.

حتى الآن لم أشاهد سيارة فخمة مثل الشبح أو البودرة أو حتى الزلمكة، مع أن الطرق تصلح للسيارات التى بحجم السفن، أنا أعرف أنهم سيخفون عني أشياء كثيرة، ولكن كيف تمكنت المخابرات الإ سرائيلية من إخفاء هذه السيارات أو إبعادها عن طريقى؟ أو أنهم لا يركبون هذه السيارات أصلاً لأنهم بخلاء؟ أو لأنهم يخشون الحسد؟

لا يجب التسرع فى الإجابة، لنتركها للباحثين. ولكن إذا كان لى أن أقول م ا توصلت إليه فهو أن الفخامة هنا عامة، وليست خاصة. فى الغالب لا توجد أسباب هنا تدفع المواطن لأن يزهو على الآخر بفخامة سيارته أو فخامة قصره. ومع ذلك فالسيارات هنا تكاد تكون كلها جديدة وفى حالة جيدة، طبيعة الطرق الجبلية تحتم وجود مواتير قوية، باختصار هم يستخدمون السيارات فقط للانتقال من مكان لآخر.

مرات قليلة للغاية تلك التى شاهدت فيها سيارة قديمة بشكل ملحوظ، باستثناء سيارتى بالطبع التى حازت إعجابهم بشكل خاص، هم لا يتصورون أن سيارة موديل ١٩٨٠ مسموح لها بالسير فى النظام العالمى الجديد، لذلك حرص الجميع على التقاط صور تذكارية لها وأنا واقف بجوارها أقصد وهى واقفة بجوارى بعد أن أصبحت أكثر شهرة منى.

***

جولة على الأقدام مع ساسون فى يافا ثم غداء فى مطعم سمك عربى على الشاطئ، طلبت سمك بوربونى صغير مقلى وأرز أبيض.

كنت أشعر على نحو غامض بأن هناك علاقة تمتد لآلاف السنين بين دمياط بلدى ويافا، وأن هذه العلاقة لابد أن تنتج تشابهاً فى طريقة طهو السمك والأرز، وبالفعل جاءت الطلبات وكأن سيدة دمياطية هى التى أعدتها، بعد ذلك وفى مطعم بيت الكتاب بتل أبيب دعتنى كارين وزوجها للغداء فطلبت بورى مشوى وأرز، بعدها تأكدت أن الدمايطة كانوا هنا من عصور سحيقة.

عدنا من يافا، تركت ساسون بالقرب من منزله فى تل أبيب وطلب منى أن أستمر على الطريق السريع إلى نتانيا. لن أتوه هذه المرة بالطبع بعد أن عرفت المخرج من الطريق السريع، دخلت نتانيا. من مدخل آخر على الطريق، وجدت نفسى فى شارع لم أسر فيه من قبل، لم أشعر بالقلق فقد كان البحر على شمالى، والفندق فى نهاية الأمر قريب من الشاطئ.

عودتى وحدى ووصولى للفندق بلا مفاجآت أشعرتنى بقدر من الثقة بالنفس كنت فى حاجة إليه.

دير الراهبات البيض

دفعت حساب الفندق وأخليت الغرفة ووضعت حقائبى فى مخزن صغير ملحق بمكتب الاستقبال، خرجت وتجولت قليلاً على الشاطئ إلى أن يحين موعدى مع ساسون وكارين فى الحادية عشرة صباحاً. ذهبنا إلى حيفا بسيارة ساسون، المسافة تستغرق أقل من ساعة، زرنا صديقين لساسون يعملان فى جامعة حيفا، الأستاذ يوسف وزوجته وهما من

عناصر السلام النشطة، تجولنا قليلاً في حيفا، سكان الوديان يشعرون بانبهار عند رؤية المدن الجبلية.

كلمة جبل عندنا نحن سكان وادي النيل تعني المكان الموحش الذي يسكنه المطاريد والوحوش، لذلك من الطبيعي أن يستولي علينا قدر كبير من الذهول والإعجاب عندما نرى الجبال وقد تحولت لحدائق وشوارع نظيفة وبيوت أنيقة.

من مكان مرتفع أخذ مضيفانا يشرحان لنا خريطة المدينة.. هذا هو الميناء، في أقصى الشمال، هذه هي حدود الجنوب اللبناني.. وهذه التلال التي تراها بوضوح هي مرتفعات الجولان. طلبت منهما أن نتناول الطعام في مطعم عربي شعبي بسيط، فعهدي بالمطاعم الفخمة المخصصة للسياح أنها تبيع الفخامة فقط. كان هذا ما فكرا فيه فعلاً. المطعم أشبه بالعنبر الكبير أو بالميس، مجرد موائد ومقاعد وقد امتلأ عن آخره بالبشر، اتضح أنه كان أحد مباني قيادة القوات البريطانية أثناء فترة الانتداب. الكفتة هنا يسمونها كباباً، والكباب يسمونه شقف لحم، في الغالب ستمضي عدة مئات من السنين قبل أن يتمكنوا من صنع كباب وكفتة تضاهي ما نقدمه في مصر، بشرط الاستعانة بخبراء مصريين مع بذل جهود مكثفة لتوحيد المصطلح في هذا المجال.

عندهم طبق يسمي «المجدّرة» مصنوع من الأرز والعدس «أبوجبة» في الغالب هذا الطبق توقف في مكانه على سلم النشوء والارتقاء منذ

آلاف السنين. أقصد أنه لو كان قد سُمح لهذا الطبق أن يتطور تطوراً طبيعياً في ظروف حياتية مبدعة ومستقرة، لتحول في النهاية لطبق الكشرى المصرى الشهير.

ما ضايقنى فى المطعم هو صاحبه نفسه، يبدو أن امتلاء مطعمه بالبشر أصابه بنوع من التعالى جعله يقول أنه لم يستمتع بالأكل فى القاهرة. عموماً للناس فيما يأكلون مذاهب.

***

غادرنا حيفا فى موعد مناسب لنصل إلى نتانيا فى الرابعة بعد الظهر وهو موعدى مع سليمان ليأخذنى إلى قرية أم الفحم، قال سليمان: ستسير ورائى.. أريدك أن تنتبه عند العقولة.. سنسير فى نفس الشارع الذى وقع فيه الحادث منذ يومين.

- أى حادث؟

* ألا تعرف..؟! سيارة ملغومة اصطدمت بأحد الأتوبيسات وتسبب الانفجار فى إصابة الكثيرين وقتل عرب ويهود.. أحد الشبان لغّم نفسه وملأ السيارة بالمتفجرات ثم توقف فجأة أمام الأتوبيس فاصطدم به...

- ألا نستطيع الالتفاف حول الشارع والذهاب من طريق آخر؟

* لا.. لابد من المرور من نفس الشارع فى طريقنا لأم الفحم.

وقع الحادث يوم الأربعاء، وأنا دخلت إسرائيل يوم الخميس، هذا هو

إذن السبب في ذلك التوتر الشديد الذي أصاب جنود الموقع عند الحدود، وهذا هو أيضاً السبب في توتر بعض السائقين وشعورهم العدائي تجاهي أحياناً، كانوا يضغطون على آلة التنبيه لمجرد أنني اقتربت من الخط الأبيض المتقطع على الطريق السريع، وفي طريق الكورنيش من تل أبيب ليافا، حدث عدة مرات أن شعرت من الطريقة التي يكبسون بها عليّ أنهم يريدون اكتساحي من أمامهم، مع أني كنت أسير بالسرعة التي أرى أن إيقاع الشارع يحتمها. وهذا هو أيضاً السبب في اهتمام الشرطة في نتانيا وحرص الضابط على كتابة ورقة أعلقها على زجاج السيارة.

يا إلهي، كنت أتحرك كل ذلك الوقت في حضن الخطر دون أن أدري.

السيارة التي انفجرت في العفّولة لم تكن تحمل لوحة الأرقام السوداء التابعة للضفة، كانت مسروقة من إسرائيل وتحمل الأرقام الإسرائيلية الصفراء، ولكن من المعروف طبعاً أن هؤلاء الذين تلسعهم الشورية ينفخون في الزبادي، والزبادي هنا هي سيارتي ذات اللوحة السوداء والأرقام العربية.

في مكان الحادث في العفّولة، أقام عدد كبير من الشباب عدة خيام على الرصيف وكأنهم يقيمون سرادقاً للعزاء في نفس الموقع، ولكن المرور لم يكن متوقفاً، هم لا يوقفون السيارات، حتى لو تنّبه أي

متطرف إلى أن سيارتي عربية، سأكون قد ابتعدت عن المكان قبل أن يفكر في إلحاق الأذى بي. تنفست الصعداء عندما غادرت العفّولة.

أم الفحم قرية عربية صغيرة يسكنها عدة آلاف، حواري ضيقة متشعبة صاعدة في الجبل بزوايا حادة. كيف كان الناس يصعدون إلى منازلهم قبل اختراع السيارات. شعرت أحياناً أنني أتسلق حائطاً بسيارتي، لن تشعر بالغربة في أم الفحم فهي لا تختلف كثيراً عن أي مدينة صغيرة في البحيرة أو المنوفية.

في مدخل القرية هناك شعار القرية، إبريق كبير من الصلب الذى لا يصدأ أقيم على تل مرتفع، إنه إبريق الوضوء، أقامه عمدة القرية الذى هو أيضاً رئيس بلديتها، كما أقام لافتات كثيرة صغيرة متناثرة على قوائم حديدية تحمل شعارات دينية، من الواضح أن هناك من لا يوافقه على اتجاهه فحطّم له بعض هذه اللافتات، هو بالطبع متدين معتدل ومستنير ومؤمن بالديموقراطية بدليل وصوله لمنصبه بواسطتها، من أجل أن يهتم بعناصر الحياة في القرية، طرق، تعليم، صرف صحي، نظافة، فرص عمل، ولكنه خلط بين اختصاصاته واختصاصات إمام القرية، فضيع وقته وجزءاً كبيراً من ميزانية القرية في تأهيل أهل القرية للتعامل مع الآخرة، تاركاً الاهتمام بهذه الحياة الدنيا للآخرين من رؤساء بلديات المدن الكافرة.

طلبت من سليمان أن يحجز لي فندقاً في الناصرة لمدة ثلاث ليال

ابتـداء من صبـاح الغـد، بحث في دليل التليفـون ثم اتصل بفندق يسـمى (سانت جابرييل) .. اسألهم بكام يا سليمان:

- بخمسة وثلاثين دولار.

* كتير يا سليمان .. نحن الآن في الوقت الميت من الموسم ..

طبـعـاً أنا لا أعـرف الوقت الميت والوقت الصـاحي في المواسم السياحـيـة في الناصرة، ولكن لا بأس من استـخـدام المصطلح من أجل الحصول على تخفيض.

عـاد سليمان يتكلم في التليفون: خـمـسـة وثلاثين كـتـيـر .. كـفـاية ثلاثين .. حضـرتك اسمك إيه؟ مريم ..؟ أهلاً وسهلاً .. طيب يا مـريم .. سنأتي لك غداً صباحاً.

قضيت الليلة عند سليمان وفي الصباح استيقظ هو مبكراً فلديه عمل يؤديه في القدس وطلب من أخيه محـمـد أن يسير أمامي بسيارته إلى الناصـرة. وأنا خـارج من أم الفحم توقف مـوتور السـيـارة عـدة مرات، حـدث انسداد في «بيك السلانسيه» بسـبـب ذرة تراب، وهو عـيـب بسـيط وسـخـيف ولكنه قـد يكون قـاتلاً هنا، فـالطرق جـبلـيـة صـاعـدة وهابطة وعـدم التـحكم في السـيـارة للحظة واحـدة بسـبـب توقف الموتور قـد تـنتج عنه كارثة.

نبـهت مـحـمـد بأضواء الفلاشـر أنني سأتوقف، طلبت منه أن نذهب

لأول ميكانيكى، بعد دقائق تمكنت من شرح العيب للميكانيكى، مفردات ميكانيكا السيارات فى مصر فرنسية وهنا إنجليزية وأخيراً قال لى: آه.. آه.. أنت تقصد الدورة الهادية.

- بالضبط.. الدورة الهادية للموتور هى ما نسميه بالسلانسيه..

قام بنفخ «البـيك» بماكينة هواء يدوية، راجع ميـاه الرادياتير والبطارية، جاء بزجاجة بها مادة مانعة للصدأ، وضع قليلاً منها فى الرادياتير وأعطانى الزجاجة، راجع زيت الفرامل والدبرياج، طلبت منه أيضاً أن يشد فرامل اليد، نحن فى مصر لا نستخدم فرامل اليد أثناء القيادة إلا نادراً، ولكن فى الطرق الجبلية لابد أن تكون صالحة للعمل بكفاءة عالية. رفض أن يحصل منى على مليم واحد فأعطيته كتاباً من كتبى، فى أحيان كثيرة أنا أستخدم كتبى بديلاً عن العملة.

مرة أخرى أمر من نفس الشارع المنكوب فى العفولة، المرور متوقف هذه المرة، هناك زحام كبير عند موقع الحادث، ولكنى كنت أشعر بقدر من الاطمئنان بعد أن عرفت أنه على بعد أمتار توجد نقطة الشرطة والإسعاف والمطافىء والمستشفى، وهذا هو ما ساهم فى إنقاذ عدد كبير من الضحايا بسرعة.

***

هذه هى الناصرة إذن، كم هى جميلة، الطمأنينة والطيبة ترتسمان بوضوح على كل وجوه البشر، لا تقاطيع متوترة أو مشدودة.

فندق «سانت جابرييل» كان ديراً من قبل، كان يسمى دير الراهبات البيض، وهو مبنى على قمة جبل يشرف على مدينة الناصرة، الرهبان عادةً يختارون مكاناً مرتفعاً وبعيداً لبناء الأديرة، الأرتفاع والبعد يشكلان الفكرة الأساسية في اختيار المكان الذي يبنى فيه الدير، الارتفاع يشعرك بالاقتراب من السماء، والبعد يجسد فكرة الابتعاد عن خطايا البشر.

ولكن البشر يتكاثرون ويزحفون على كل مكان وهنا يفقد الدير فكرتي البعد والارتفاع، ولابد من تحويله لشيء آخر، دعاني الشاعر سميح القاسم إلى مطعم فى وسط الناصرة كان ديراً هو الآخر. لقد نزلت فى أسفارى فى فنادق كثيرة ولكنى شعرت هنا براحة لم أشعر بها من قبل. وكأن الرهبان الذين سكنوه من قبل، تركوا بين جدرانه قبل أن يرحلوا، كل ما كان عندهم من رقة وطيبة. أمر واحد كان يضايقنى، كنت وحيداً.

الوحدة مطلوبة عند الإبداع أو فى معارك التحدى، أو فى الظروف السيئة، ولكنها تفقدك الاستمتاع بكل ما هو ممتع.

فى مكتب الاستقبال يستلفت نظرك طقم أنتريه عربى جميل، فتاة عربية فى مكتب الاستقبال:

- حضرتك مريم؟

- نعم.

* أنا فلان .. وقد تكلمنا معك بالأمس ..

- أهلاً وسهلاً ..

* يا مريم يا أختى .. الثلاثون دولار كثير.

- خلاص نخليهم ثمانية وعشرين .

* برضه كتير يا مريم يا حبيبتى ..

ابتسمت الفتاة فى رقة وطيبة وقالت: عاوز تدفع كام؟

- عاوز أدفع خمسة وعشرين ..

* خلاص .. نخليهم خمسة وعشرين .

عوملت في الفندق معاملة كريمة، عندما كنت ألتقى ليل نهار، بأى شخص من العاملين كان يسألنى: تشرب قهوة؟ لقد لاحظوا فى البداية أننى كييف قهوة، ويبدو أنهم خشوا أن يمنعنى سعرها المرتفع من طلبها بالكثرة الواجبة، بشكل عام كانوا على وعى بأن الأسعار هنا لا تناسب المصريين، وذلك من خلال زياراتهم المتكررة لمصر. وبالمناسبة أنا أعتقد أن أى شعب بحاجة لأكبر كمية من الشر ليكره المصريين، لا أقول ذلك لأننى مصرى، ولعلى أقوله لأننى مصرى.

عندما غادرت الفندق قالت لى مريم: أستاذ على، أنا حزينة جداً لأن صاحب الفندق ليس هنا .. هو يحب مصر جداً، طبعاً نحن جميعاً نحب مصر، ولكنك لا تتخيل حبه لها .. انظر، هذا الأنتريه العربى من مصر ..

هذه المقاعد من مصر.. تجهيزات الغرف والمطعم أغلبها من مصر.

***

اتصل بي ساسون وأخبرني أن جريدة كل العرب التي يرأس تحريرها سميح القاسم سترسل لي محررها الأدبي سليمان أبو ناطور لإجراء حوار معي، بعد ذلك بدقائق أبلغني موظف الاستقبال أن صحفياً اسمه فايز عباس اتصل وقال أنه في طريقه للفندق.

- فايز عباس.. من أي جريدة؟

* أعتقد أنه يعمل في جريدة كل العرب.

يبدو أن المحرر الأدبي أرسل شخصاً آخر، وجاء فايز، شاب له لحية كثيفة ويرتدي نظارة قاتمة، اللحية الكثيفة والنظارة تحولتا لقناع ثقيل يخفي عنك حقيقة شعوره تجاهك، فتظل تشعر طول الوقت أنه بعيد عنك..

- لماذا أنت هنا؟

* أنا هنا دعماً لاتفاقية أوسلو، ودعماً للسلام الفلسطيني الإسرائيلي، ولأعرف الناس عن قرب.

- ولماذا بالسيارة؟

* لإعادة تذكير الناس بأن بيننا وبينكم حدوداً مشتركة.. وأننا قريبون منكم وأنتم قريبون منا، وأنه لا بد من صنع السلام من أجل

حرية الإنسان الفرد وحقوقه بما هو إنسان وليس بما هو يهودى أو مسلم أو مسيحى أو يدين بأى دين آخر..

- هل هذا أمر سهل..؟

* لا.. هو صعب للغاية.. وقد يكون داخلاً فى دائرة الأحلام، ولكن كل ما حققه البشر على الأرض كان يبدو يوماً ما حلماً مستحيلاً..

دعانى فايز للغداء فى مطعم الفندق فطلبت منه أن يغير موقع الدعوة، لمجرد التغيير: لماذا لا تدعونى فى مطعم فى البلدة؟

- وقتى ضيق، ولدى مواعيد كثيرة..

* حسناً لنؤجلها.. ولكن من فضلك لدى عدة كتب أرجو توصيلها لسميح القاسم.. أنت عائد الآن للجريدة طبعاً..

- لست أعمل فى جريدة كل العرب.

* أليس هذا الحوار لكل العرب؟

- لا.. هو ليديعوت أحرونوت.

* حسناً.. هل تتفضل بأن تأخذنى معك فى طريقك وتتركنى أمام الجريدة؟

تبخرت دعوته للغداء بسرعة البرق، لم يكافح من أجل تحقيقها، أوصلنى إلى مبنى الجريدة وأشار إلى الطابق الذى تحتله ثم مضى فى

طريقه ولم أشاهده بعد ذلك. عندما أتذكره أشعر بالدهشة، لماذا لم أشعر تجاهه بالود؟!

سميح القاسم شاعر كبير مشهور وشخص يتسم بالرقة والعذوبة والوسامة، يبدو مستمتعاً بحياته، حاضر الذهن دائماً وقدرته على تلخيص فكرته مذهلة، عندما تراه تشعر أنك تعرفه منذ زمن طويل، وأنه تربطك به علاقة طويلة قوية، هو صديق لك باعدت بينكما الأيام. كانت المرة الأولى فى حياتى التى أراه فيها فأحببته، قال سميح: المثقفون عندكم لا يريدون زيارة إسرائيل.. من طلب منكم زيارة إسرائيل؟ زورونا نحن.. زورونا في وطننا.. هذا هو الوطن، نحن نعيش هنا في وطننا.. عندما زرت مصر سألوني عن انطباعي فقلت لهم: انتقلت من وطن إلى وطن.

تناولنا الغداء معاً في مطعم ماريا فونتانا الذى كان ديراً من قبل، سميح من النوع الذى تحب أن تتناول طعامك وشرابك معه، من الصعب العثور على مثقف يفتح شهيتك للطعام، عدنا للجريدة، طلب من محمود أبو رجب سكرتير التحرير توصيلي للفندق..

في المساء جاء محمود ومعه زوجته، أجرى معي حواراً طويلاً، ثم أخذني إلى بحيرة طبرية.

السياحة مرة أخرى، هي بحيرة كبيرة تحتضنها المطاعم والفنادق والكازينوهات والناس ساهرة حتى الصباح. أعادني إلى الفندق في

الواحدة بعد منتصف الليل، أشعر بالإعياء، هناك كيس دهني في رقبتي، لم يكن يؤلمني لشهور طويلة، فنسيته أو تناسيته، فجأة التهب بشكل ينذر بالخطر، لابد من الذهاب لطبيب، طلبت من محمود أن يأخذني في الصباح إلى طبيب.. يبدو أنني مريض فعلاً فقد عجزت عن النوم من شدة الألم..

زورونا فى العمر مرة

من مكتبه بجريدة «كل العرب» حاول محمود الاتصال بطبيب صديق له، ولكن رقمه كان مشغولاً باستمرار، فطلب منى أن نتوجه للعيادة . هى مستوصف تابع للهستدروت، لم يجد الطبيب الذى يعرفه وترتب على ذلك أن جلست فى انتظار دورى ولكنه همس فى أذن الممرضة: معى زميل مصرى.. فاهتمت الممرضة ثم اشتعلت اهتماماً

وحماساً هى وبقية طاقم الممرضات والحكيمات عندما همس فى أذنها وكأنه يفشى سراً خطيراً: هو مؤلف مسرحية مدرسة المشاغبين.

بالرغم من الألم الذى كنت أشعر به إلا أننى كنت أشعر بقدر من السرور لمرورى بالتجربة، تجربة الدخول فى عيادة شعبية فى الناصرة، هى فرصة للتعرف على التكنولوچيا الطبية الحديثة التى تستخدمها إسرائيل فى التعامل مع الدمامل. ترى، هل توصلوا لاختراع يوضع على الدمل فيختفى على الفور؟.. سنرى.

أزحت ياقة القميص فبدا الفزع على وجه الطبيب وكتب لى فوراً على نوعين من المضادات الحيوية ثم وضع لى بنفسه مرهم الأكتيول الشهير مع ضمادة من الشاش. هو نفس المرهم الذى نستخدمه فى مصر، الفرق الوحيد هو أنهم ينطقون الاسم (أختيول)... طلب منا أن نصرف الروشتة من صيدلية العيادة فى الخامسة بعد الظهر، حيث إن الصيادلة فى حالة إضراب جزئى ولا يعملون نهاراً. ولكن الحكيمات فتحن الأدراج الخفية وأخرجن منها المضادات الحيوية على الفور وأعادنى محمود إلى الفندق.

***

إذا اتخذنا مسلسلات التليفزيون مرجعاً للواقع المعاش فلا بد من ظهور فتاة جميلة شقراء اسمها إستير تضعها الموساد فى طريق البطل المصرى فتوقعه فى حبائلها ثم تبكى من فرط حبها له.. أين هى؟ أين إستير؟

وأخيراً ظهرت إستير. بنفس المواصفات الساحرة الشهيرة، هي تعمل في الفندق وينادونها «إيتي»، أرسلت لي من بعد عدة نظرات إستيرية أشبه بالسهام أو بالصواريخ أرض أرض، أو إن شئت الدقة صواريخ جفن رمش فقلت لها: إيتي.. آبعدي عني... أنا مش قدك.

وهي جملة شهيرة في قاموس الغزل بالعامية المصرية، في الظاهر تعني الرغبة في الابتعاد بينما ترجمتها الحقيقية هي أن صاحبها يطلب القرب. ولكني نسيت أن خبرة إستير بالعامية المصرية لا تتيح لها الإحاطة بالمعنى المقصود. محصولها القليل من اللغة العربية جعلها عاجزة عن فهم كلماتي، وتطلب الأمر أن يشترك كل العاملين في الفندق في شرح المعنى الظاهري للجملة فبدت سخيفة لا معنى لها.

في صباح اليوم التالي اكتشفت أنني عاجز بمفردي عن تغيير الضمادة، نزلت إلى بهو الفندق ومعي المرهم والشاش والبلاستر، كانت إستير ترتب موائد المطعم: إيتي هل هنا أحد له صلة بالتمريض؟

أجابت: نعم.. أنا.. تعال.. اجلس، هنا..

بأصابع مدربة أزالت الضمادة القديمة ونظفت مكانها ثم وضعت المرهم على قطعة من الشاش المعدة لذلك وألصقتها على رقبتي بالبلاستر ثم انصرفت لعملها في نشاط. في ظروف أخرى لو أنني قابلت «إيتي» في ميدان القتال لجزّت رقبتي بسكين أو أطارتها بدفعة رشاش. هذا هو قدر الإنسان على الأرض واختياره أيضاً، إما أن يقتل الآخر وإما أن يضمد جراحه.

كانت هذه هى اللقطة الأخيرة التى ظهرت فيها إستير فى مسلسل الرحلة. إننى أعتذر عن الإحباط الذى أسببه للقارىء الذى ربما يكون قد منَّى النفس بعدة لقطات ساخنة تشترك فيها إستير. وبذلك يتضح أنها - للأسف - لم تكن مكلفة من الموساد بالاقتراب منى والسيطرة علىَّ. ولكن علىَّ أن أعترف ببعض التقصير من ناحيتى، حيث إننى لم أبذل أى محاولة جادة للوقوع فى قبضتها بسبب المرض وضيق الوقت. عموماً من غير المعقول دراميا وواقعيا أن تقع البطلة فى حب بطل يعانى من دمل فى رقبته بكل هذا الحجم وكل هذا الاحمرار. كما أن رائحة مرهم الأكتيول النفاذة كفيلة بإبعاد أى أنثى عن طريق أى بطل.

جاءتنى كرمة الزعبى وهى شابة تعمل موجهة مسرحية، ودعتنى لجولة حول مدينة الناصرة وتناول القهوة، فاقترحت عليها أن تكون القهوة مصحوبة بعدة قطع من البقلاوة أو الكنافة فوافقت بعد أن اكتشفت أن اقتراحى أكثر موضوعية.

فى المساء زارنى إميل حبيبى فى الفندق، إميل هو صاحب النداء الشهير للمثقفين المصريين: زورونا فى العمر مرة...

وهو نداء مؤلم يحمل من الحب بقدر مايظهر من المرارة والتعب من العزلة. قابلت إميل للمرة الأولى فى حياتى فى فندق سميراميس فى القاهرة، عندما كان مدعواً فى معرض القاهرة الدولى للكتاب فى يناير ١٩٩٤. قلت له: سأزورك قريباً فى الناصرة يا إميل..

فنظر إليّ طويلاً في صمت وكأنه لا يصدقني .

دعاني للعشاء فاعتذرت له لأنني أعطيت موعداً لتوفيق زياد الذي سيأتي بعد ساعة : إميل نرجو أن يمتد العمر بنا .. ويتسع لعدة زيارات .

وجاء توفيق زياد، رحب به بشدة العاملون في الفندق كما رحب به رواد الفندق من أهل الناصرة الذين كانوا يتناولون العشاء . أعتقد أن توفيق تخطى الخامسة والستين من عمره ، ولكنك بعد لحظات من الحديث معه تشعر بحيويته وشبابه المتدفق . يتحدث بصوت مرتفع وبأفكار مرتفعة أيضاً متطابقة تماماً مع كلماته ، هو رئيس البلدية ، وهو عضو الكنيست ، ورجل دولة شجاع لايخضع لابتزاز الديماجوجية وتجار الأوهام ، منطلق لا يعرف ذلك التحفظ الذي نعهده في المشتغلين بالسياسة ، الشاعر بداخله طغى على السياسي ، أو لعله جعل السياسة تخدم قضايا الجمال الشعرية ، لأنه عمدة لمدينة شهيرة ، الشاعر في هذه الحالة ليس منشغلاً بنظم الأبيات ولكن بنظم الحياة اليومية لسكان المدينة ، هو مسئول عن تحويل مدينته ، إلى قصيدة جميلة .

التفت لمسئولي الفندق وقال بصوت مرتفع :هذا الرجل ضيفي .. لا تأخذوا منه فلوساً ..

ثم التفت إليّ : إوعى تدفع حاجة .. أنت ضيفي .

كدت أصيح به في سخط : ولماذا لم تقل لي ذلك منذ البداية ؟ لماذا

تركتنى أساوم مريم ..؟ أنت تشعرنى الآن بالندم على كل لحظة قاومت فيها رغبتى فى دخول المطعم والبار.

ولكنى بدلاً من ذلك صحت فيه بحماس كاذب تقريباً: أرجوك ياأستاذ توفيق ... أرجوك .. أنا أشكرك جداً .. ولكن اتركنى أدفع الحساب .. واعزمنى فى وقت آخر ..

فصاح: انتقل لموضوع آخر .. لاتتكلم فى هذا الموضوع ..

عدت أصيح محتجاً فى توسل: أرجوك .. معلهش ... سيبنى أدفع ..

فارتفع صوته فى حسم: لا .. انقل .. تكلم فى موضوع آخر.

فاستمعت فوراً لنصيحته وتكلمت فى موضوع آخر خوفاً من أن يستجيب فجأة لتوسلاتى.

***

هناك حركة إصلاح فى كل شوارع وحوارى وطرق الناصرة، هم يستعدون منذ الآن لعيد ميلاد السيد المسيح عليه السلام عام ٢٠٠٠، قال لى توفيق: ميزانيتى لا تكفى لتحقيق ماأحلم به، لذلك أنا ألجأ للشباب المتطوع فى إنجاز بعض المشاريع العامة .. هناك شباب كثيرون من كافة التخصصات يعملون مجاناً ..

- هل تصرف لهم وجبة طعام؟

* ثلاث وجبات .. فهم يعملون طول اليوم .. لقد حسبنا فى أحد

المشاريع حجم العمل الذى قاموا به فوجدناه عشرة أضعاف ماكان يمكن للميزانية أن تنجزه..

آه.. آه.. آه.. لو وثق الشباب في قيادته السياسية.. لم أقلها له.. قلتها لنفسي، وأرجو ألا يكون أحد فوق الأرض قد سمعها.

- لسنا ذاهبين لمطعم تقليدى.. هو مكان يملكه أحد الأصدقاء.. سنأكل سمكاً..

* أين هو هذا المكان؟

- صدقني لا أذكر مكانه.. آخر مرة زرته فيها كانت منذ أعوام.. ولكن صديقاً سينتظرنا فى مكان قريب ويقودنا إليه.

بالفعل، عند مكان خارج الناصرة، كان هناك رجل ينتظرنا بسيارته، سرنا خلفه في الحقول عبر ممرات ضيقة إلى كوخ في مكان منعزل. الكوخ ضيق وسقفه منخفض وهناك مائدة طويلة احتلت المكان كله. توجد غرفة أخرى صغيرة يستخدمها صديقه لقلي السمك، كان هناك في انتظارنا مجموعة من أصدقاء توفيق.

الليل، الشخص الذى ينتظرنا فى سيارة ليقودنا عبر الحقول، الكوخ المنعزل ذو السقف المنخفض، المائدة الطويلة والرجال الجالسون إليها، كل هذه العناصر التى تتسم بالغرابة والغموض أشعرتنى بأننى أشترك فى تمثيل فيلم عن المقاومة الفرنسية فى الحرب العالمية الثانية.. أو أننى أحضر اجتماعاً حزبياً سرياً..

ولكن السمك المقلي كان طازجاً ولذيذاً، ماأحلى السمك الطازج الذى قُلي تواً مع الأصدقاء وعصير العنب وعصير البصل. أكلنا وشربنا وضحكنا فى مرح واستمتاع، وكان لابد أن يأتى حديث السياسة. هادم المزّات ومفرّق الجماعات ومفسد السمكات ومزيل الآثار الطيبة للمشروبات.

لقد أصدر إسحق رابين قراراً بفرض الحصار على الضفة بعد حادث التفجير الذى حدث فى العفّولة وغيرها، وذلك حماية - فى تصوره - للشعب الإسرائيلى.. كما قرر استيراد عمالة من خارج المنطقة... وجهة نظرى هى: هذا قرار سياسى خاطىء.. هو يحرم الفلسطينيين من فرص العمل وبالتالى يسلمهم للفقر والتعاسة ويحولهم لمتطرفين أعداء للسلام، وفى الوقت نفسه لا يحمى الشعب الإسرائيلى.

لا يوجد على الأرض ما يسمى بالأمن المطلق، لن يستطيع إحكام الحلقة الأمنية على المنطقة.. أى حصار مهما بلغت دقة وسائله لن يمنع شخصاً من الإفلات بشحنة ديناميت.. أو بمسدس.. أو بسكين. وهنا تسقط حجة حماية الشعب الإسرائيلى.. بيريز يقول: «يجب معاملة الفقر فى المنطقة معاملة التهديد النووى» وأنا أوافقه على ذلك.. فلماذا يريد رابين أن يتسبب فى المزيد من الفقر أو فى المزيد من التهديد النووى؟

الشاب الذى تسبب فى حادث العفّولة كان يركب سيارة مسروقة من

إسرائيل، وحادث التفجير فى الأتوبيس الآخر اتضح أن وراءه شخصين يحملان هوية إسرائيلية ويعيشان فى القدس الغربية.. أنا أقول إن هذا القرار مقصود به إرضاء الشارع فقط.. ولكنه خطأ سياسي..

- حسناً.. مارأيك أن تقابل رابين وتقول له هذا الكلام..

* ياعمدة، أنا لست هنا للحديث في السياسة، ومن سوء الأدب أن أعترض على قرار لرئيس وزراء فى بلد أنا مجرد ضيف فيه.. كيف أقول له هذا الكلام؟.. لو أننى رابين وجاءنى مؤلف مسرحى عربى ليعترض على قرار لى... لرددت عليه على الفور: ياخويا روح اتشطر على قرارات رؤساء الوزارات بتاعتكم..

هناك أمر آخر يا عمدة، سمعت كلاماً هنا عن استيراد عمالة مصرية فى الزراعة والبناء.. وأنا أعترض بشدة على هذه الفكرة.. ليعمل الفلسطينيون هنا أولاً.. لماذا ندق إسفيناً بين الفلسطينيين والمصريين فى هذا الوقت الملتهب...؟

فيما بعد فى القدس عندما قلت إن هذا القرار خاطئ سياسياً من الناحية الفنية، وأن المقصود به إرضاء الشارع فى إسرائيل، رد على موشيه ساسون سفير إسرائيل السابق فى مصر وقال بهدوء: لاتنس أن الشارع هو الذى يأتى بنا إلى الحكم..

نعم، هذه هى مشكلة الديموقراطية الأبدية وسر عظمتها أيضاً..

ولكن السؤال في الحكم سيظل هو: هل يقود رجل الدولة الشارع أو يترك نفسه ليقوده الشارع؟

إن استبعاد القيمة الأخلاقية في السياسة خطأ سياسي باهظ التكاليف، وفاتورته المرتفعة سيدفعها المجتمع حتماً وإن تأخرت لسنوات. منذ سنوات قليلة كان رجال السياسة في إسرائيل يقولون. لا يوجد ما يسمى بالشعب الفلسطيني.. تعالوا نبن المستوطنات في أحشائهم.. ألم يكن ذلك لإرضاء الشارع؟ الشارع ليس دائماً على حق.. بل هو في معظم الوقت على باطل.. الحقيقة يستوعبها ويصل إليها ويحارب من أجلها المفكر الفرد.. وهذا هو ماحاول مفكروكم التنبيه إليه منذ سنوات طويلة.

إنني أذكر كتاب آريه إلياف، «أرض الظبي» الذي كتبه منذ أكثر من عشرين عاماً.. وأذكر كتاب الأستاذ هاركابي «ساعة إسرائيل المصيرية».. الذي كتبه من عدة أعوام.. أصوات كثيرة في إسرائيل كانت تطلب الاعتراف بالشعب الفلسطيني، وحتمية التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، فهل كان الشارع في إسرائيل يرغب في ذلك؟ هل كان يسعده ذلك؟ لا طبعاً..

تعال لأي شارع في أي دولة متخلفة أو متحضرة وقل للجموع التي تسمى بالجماهير: هيا نذبح أعداءنا لأنهم كفار.. أو لأنهم يرفضون

الوحدة العربية .. أو يطلبون الوحدة العربية .. أو لأنهم أكثر منا ثراء أو أكثر فقراً، أو لأنهم من الشمال أو لأنهم من الجنوب .. يكفى أن يكونوا مختلفين عنا ومعنا فى أى شىء .. لا شىء أسهل من إيقاظ غريزة العدوان داخل البشر.

رجل الدولة مثل مهندس الإنشاءات، هل يخضع لصاحب البناء عندما تتعارض رغباته مع قوانين الهندسة ؟ هل ينجز البناء بشكل خاطئ هندسياً بحيث يسقط فيما بعد على رأس ساكنيه .. على رأس شعبه ؟

هناك جملة فى كتاب إلياف تقول: «لا يجب أن نلجأ للعنف فى معاملة الأراضى المحتلة، فمن المؤكد أن هذا العنف سيرتد إلى صدورنا يوماً ما» ولم يصدقه أحد، أخذتكم العزة بالنصر.. هناك وحدة وجود فى هذا الكون، مانفعله بالآخرين هو نفسه مانفعله بأنفسنا .. إذن القيمة الأخلاقية ليست ترفاً وليست عبطاً سياسياً، بل هى قانون رياضى من قوانين الكون، بذلك تكون الأساس القوى الوحيد للعمل السياسى.

كيف نفعل بالآخرين مانكره أن يفعلوه بنا ؟ وما هو الثمن الذى سندفعه عندما نرتكب ذلك ؟ أعتقد أن الشعب الإسرائيلى بدأ يدرك الآن فداحة الثمن الذى يدفعه نتيجة لتجاهل ساسته لسنوات طويلة وجود الشعب الفلسطينى وحقوقه وهويته ..

***

أوصلني توفيق إلى الفندق في حوالي الواحدة بعد منتصف الليل... كنت قد بدأت أشعر بالإعياء من تأثير الدمل والمضادات الحيوية... لا أعرف كيف نمت.

أخليت غرفتي في الثانية عشرة ظهراً وهو موعدي مع ساسون الذي سيصل من تل أبيب في أتوبيس، كان قد اتفق معي من خلال التليفون على أننا سنزور بعض الأدباء في الناصرة قبل التوجه إلى تل أبيب. تأخر عن موعده، عرفت من بعض الناس في الفندق أن المرور متوقف على طريق تل أبيب الناصرة، وقعت حادثتان، محاولة تفجير أتوبيس وسيدة عربية طعنت ثلاثة من اليهود، أخبار تثير الاكتئاب وخاصة أنني كنت في حالة صحية ونفسية سيئة.

وصل ساسون حوالي الثالثة بعد الظهر. كنت عاجزاً عن الحركة، من المستحيل أن أقود سيارتي وأنا بهذه الحالة، آه لو أنني استطعت أن أنام عدة دقائق.. قلت لساسون: إنني متعب جداً وفي حاجة لأن أنال قسطاً من الراحة..

- مريم.. لقد أخليت الغرفة.. ولكني في حاجة لأن أنام قليلاً.

* الفندق كله تحت أمرك.

صعدت إلى الغرفة ومعي ساسون، لم يكونوا قد أعادوا ترتيبها بعد، هناك سرير صغير إضافي ملحق بالغرفة، تركت لساسون السرير الكبير، طلب مني أن نتبادل المخدات.. يجب أن أعطيه المخدة التي لم أكن أستخدمها.. من يدري أليس من الجائز أنك مصاب بشيء معد؟

- نعم ياساسون .. الاحتياط واجب أتفضل المخدة .

شعرت بالضيق قليلاً من ساسون، كيف يتصور أن الكيس الدهنى مرض معد؟! بعد ذلك عرفت أنه كان على حق، لقد أصيب الكيس الدهنى فعلاً بعدوى مجهولة المصدر، كان يفكر بشكل واقعى لا أثر للمجاملات فيه، حماسه للأدب العربى لا يعنى استعداده للإصابة بالمرض بواسطة أديب عربى أو من أجل الأدب العربى.

فشلت فى النوم، يجب أن أستجمع قوتى، لا أريد أن أقود سيارتى فى الظلام، الساعة الآن الرابعة بعد الظهر، من الواضح أننى لن أنام .. من الخطأ أن نتأخر أكثر من ذلك.

- ساسون .. هيا بنا .

* هل أنت قادر على قيادة السيارة الآن؟

- نعم، عموماً المسافة بسيطة .

أكره أن أرغم على الحركة وأنا مريض، بل إن المرض يشعرنى أحياناً بالخجل والتوتر، بالتأكيد لم أكن فى حالة طبيعية، عدت للوراء بسيارتى فشعرت بها تحتك بشىء ما، كانت هناك سيارة أخرى بجوارى لم أنتبه لوجودها، سيارتى مرتفعة والأخرى صغيرة ومنخفضة جداً، الاحتكاك خدش الباب المجاور لى، الحمد لله، السيارة الأخرى سليمة، فقد جاء الاحتكاك بالإكصدام الخلفى لها . زاد ذلك من عصبيتى فأنا

أكره انعدام اليقظة أثناء القيادة وأعدها عيباً أخلاقياً. ضاعف من ألمى وعصبيتى أننى كنت فى حالة لاتسمح لى بالبحث عن صاحب السيارة بالاعتذار له.. بكل ما تبقى لدى من قوة قدت سيارتى من الناصرة، إلى تل أبيب.

ـ أنت نسخة أخرى من على سالم.. أنا الآن أشاهد شخصاً أراه للمرة الأولى فى حياتى... فقدت بشاشتك ومرحك.. أنت شخص آخر فعلاً.

* أنا مريض ياساسون.. النسخة التى تراها الآن هى النسخة المريضة.

***

فى فناء فندق (راماث أفيق) بتل أبيب قال لى ساسون: ومع ذلك فقد قدت سيارتك بشكل جيد.

لا أعرف حتى الآن هل كان يسخر منى أم يحاول رفع معنوياتى..

ـ أنت الآن ضيف جامعة تل أبيب لمدة أسبوع.. بالتحديد ضيف قسم الأدب العربى.. الإقامة بالإفطار فقط.. أى طلبات إضافية ستكون على حسابك.

* أشكرك ياساسون.. هذا كرم منك.

كتب ورقة بأن صاحب السيارة هو ضيف جامعة تل أبيب وألصقها على زجاج السيارة من الداخل، دعانى للعشاء هو وزوجته خارج الفندق

فى مطعم متميز ثم أعادنى فى الثامنة مساء. أنا أعتقد أن دمى كان ثقيلاً طول الوقت. المرض يسلب منا هويتنا، هو أيضاً نوع قاس من الاحتلال. استلقيت على سريرى على الفور ونمت نوماً متقطعاً حتى الصباح. كان نوماً أشبه بالإغماء.

«رامات أفيف» هو اسم الحى واسم الفندق الذى اختاره لى ساسون، قريب من الجامعة وقريب من منزله وبه ميزة مهمة، فناء داخلى واسع كبير تظلله النباتات والأشجار، أستطيع أن أوقف فيه سيارتى باطمئنان.

من الصعب تحديد طابع لهذا الحى، أو بمعنى أدق هو لا يعكس الملامح الحقيقية لمدينة تل أبيب. إن الأحياء الراقية تتسم بالنظافة والهدوء والبرود. ولكنها فى أفضل الأحوال تشعرنى بأنها منسحبة من الحياة أو هاربة منها. أما الحياة نفسها فتجدها فى الأجزاء القديمة من المدينة.

البشر يمشون على أرض الشارع بخطوات سريعة، المقاهى والمطاعم الصغيرة، المحلات التجارية المتراصة بجوار بعضها البعض تعرض فى واجهاتها الزجاجية العريضة السلع المختلفة، فى ذوق رفيع أو سقيم، والبيوت القديمة ذات النوافذ الصغيرة على جانبى الحوارى الضيقة التى تربط بين الشوارع فى خطوط متعرجة ورائحة البحر المنعشة، كل ذلك يرسم على وجه المكان ملامح إنسانية متميزة.

إن البيوت القديمة المعتنى بصيانتها والحوارى الصغيرة والأضواء

الخافتة المنبعثة من خلف النوافذ وأصوات مواتير الاتوبيسات الضخمة التى تمر من شارع قريب، حديث البشر مع بعضهم البعض، وقع أقدامهم على رصيف الشارع، تشعرك جميعاً بأنك تتحرك فى جزء حيقى من الحياة . أما الأحياء الراقية الواسعة التى رسمت شوارعها فى استقامة وحدائقها فى عناية فهى لا تشعرنى بأنها من صنع البشر، ولكنها من صنع أحد المخرجين لإرضاء أبطال الفيلم والمتفرجين، أو لأن س بناريو الفيلم يتطلب ذلك .

***

ـ على .. قلت لك إن الإقامة بالإفطار فقط ... هل لديك فكرة عن وجبة الإفطار؟ ... هناك ما يسمى بالإفطار الإسرائيلى الشهير .. هل تعرفه ؟

* لا يا بروفيسير للأسف .. أنا أعرف فقط إفطار المثقفين الشهير وهو القهوة والسجائر.

ـ هو إفطار متنوع وقوى وغنى .. تجد فيه كل شيء .. هو يقدم لك وجبة كافية لإبعاد الجوع عنك طول النهار.

بالفعل، بوفيه الإفطار الإسرائيلى المفتوح يقدم لك أكثر من ثلاث وجبات فى وجبة واحدة، ولو كان الجسم البشرى يعمل بالطريقة التى يعمل بها موتور السيارة، أى يسحب بالتدريج من خزان الوقود، لكان من الممكن أن تكفيك وجبة الإفطار لمدة أسبوع وليس ليوم واحد.

انشغلت بسؤال: لماذا كل هذا الثراء الذى يبلغ حد البذخ فى وجبة الإفطار فى شعب عرف بالحرص؟ وهل هو إحياء لتقليد قديم؟

أنواع الإفطار على الأرض معروفة وأشهرها هو إفطار الكونتيننتال الذى تقدمه كل فنادق العالم، مربى، زبد، شاى أو قهوة، خبز. حتى الإفطار الإنجليزى الدسم الشهير فى طريقه للانقراض أو لعله انقرض فعلاً. وهناك الإفطار المصرى الشهير، طبق الفول. ولكن هناك إفطاراً آخر كان يقدم فى بلدتى دمياط منذ حوالى خمسين عاماً ومن المؤكد أنه انقرض هو الآخر ولكنى مازلت أذكره، كان يسمى «الاصطباحة». هذه الاصطباحة كانت تقدم فى الصباح الباكر وهى وجبة غنية تسبق وجبة الإفطار التقليدى بعدة ساعات، قطعة من الجبن الدمياطى الشهير، قطعة من الكنافة أو البقلاوة، بيضتان مقليتان فى السمن البلدى أو الزبد، كوب كبير من الشاى باللبن، أو بمعنى أدق من اللبن الذى يضاف إليه القليل من الشاى ثم رغيف أو نصف رغيف من الخبز الفينو الأبيض الفاخر الذى لم يعد له وجود.

لا شأن لى بإفطار الكونتيننتال ولا بطبق الفول، الإفطار الإسرائيلى ذكرنى بالاصطباحة الدمياطى، وتداعت أفكارى تبحث عن المرة الأولى فى حياتى التى سمعت فيها كلمة «يهودى»، من مخزن الحواديت القديمة الراقدة فى أعمق أعماق الذاكرة، طفت إلى السطح القصة الشهيرة عن اليهودى والدمياطى فى حواديت دمياط الشعبية.

لقد عاش اليهود فى كل بقعة فى العالم، ولكن دمياط كانت المدينة الوحيدة التى عجزوا عن الحياة فيها.

ـ وكيف كان ذلك؟

فى قديم الزمان، سار أحد اليهود راكباً حماره صاعداً شمالاً بحذاء النيل باحثاً عن بلدة يقيم فيها ويتخذها مكاناً لنشاطه إلى أن وصل إلى دمياط القريبة من البحر الأبيض. قبل أن يدخل البلدة شاهد شخصاً من سكانها يجلس في ظل خص صغير، فتوقف عنده ونزل من فوق حماره ليستريح قليلاً. رحب به الرجل وسأله: هل من خدمة أستطيع أن أؤديها إليك؟

فأجاب اليهودى: نعم.. أنا فى حاجة لتناول طعام العشاء.. وبعده الحلو.. كما أريد أن أتسلى.. وأن أتدفأ.. كما أريد أيضاً لحمارى أن يتناول عشاءه... بعد ذلك أريد مكاناً أنام فيه حتى الصباح..

سأله الدمياطى: ماهى الميزانية التى خصصتها لذلك؟

أجاب اليهودى: خمسة مليمات.

أخذ الدمياطى المليمات الخمسة واشترى له رغيفاً بمليم وفلافل بمليم وبطيخة بمليم واحتفظ بالباقي وقال له: عشاؤك هو الخبز والطعمية، وما أجمل أن يكون الحلو بطيخاً..

ـ وأين التسلية..؟

* ستقزقز لب البطيخ.. ما أجملها من تسلية..

- والدفء.. أريد أن أشعل ناراً أتدفأ بها..

* لاتتخلص من قشر اللب... أشعل فيه النار فى هذا الموقد وتدفأ.

- وأكل الحمار؟

* هل نسيت قشر البطيخة.. هو عشاء فاخر لحمارك.

- والنوم؟

* نم هنا يارجل فى نفس المكان.. أنت ضيفى..

فقال اليهودى لنفسه: هذه مدينة لاحياة لى فيها..

وركب حماره ورحل..

كنا نفهم فى طفولتنا الحدوتة على أنها تتهم الدمياطى بأنه أكثر بخلاً من اليهودى ولكن بتحليل عناصرها أستطيع الزعم بأنها لا تتكلم عن الحرص أو البخل، بل هى درس فى تجنب «الفاقد». كيف تتعامل مع عناصر الحياة من حولك فى أضيق نطاق دون أن تتخلى عن احتياجاتك الفعلية من طعام وحلو وتسلية ودفء بغير فاقد؟ كيف تستهلك من الدنيا مايكفى لبقائك حياً دون الوقوع فى خطيئة الثروة المهدرة والطاقة المهدرة..؟

تستطيع أن تقول: ولكن الدمياطى خدع اليهودى.. لم يكن أميناً معه، أخذ منه خمسة مليمات واشترى له أشياء بثلاثة فقط.

غير صحيح، لقد كان أميناً معه، المليمان هما أجره عن الذهاب إلى السوق وشراء الخبز والطعمية والبطيخة، وهى أيضاً أجره عن الإجابة عن الاستشارة.. وتقديم دراسة جدوى واقعية من خلال الميزانية الضئيلة المعروضة، لقد باع له الـ Know How.

وإذا كان لى أن أخترع تعبيراً جديداً فى اللغة العربية مستعيناً باللغة الإنجليزية، فهو «العقلية النوهاوية» وهى العقلية التى تتعامل مع الحياة بالفهم الصحيح بلا حرمان مستفيدة من كل العناصر المتاحة بلا أى فاقد أو بأقل قدر منه.

هى ليست عقلية مقتّرة بل مقطّرة، بمعنى أنها لا تغترف من نهر الحياة بالجاروف ولكنها تسحب منه بالقطارة. لذلك كان من الطبيعى أن يخرج اختراع الرى بالتنقيط من أحد الكيبوتزات لينتقل للعالم كله.

إذا اتفقنا على أن الحرص والبعد عن الإسراف والبذخ وتقليل الفاقد لأقصى حد هو أهم ما تتميز به الشخصية اليهودية. فلماذا كل هذا البذخ والإسراف فى وجبة الإفطار مع إعطائها الصفة القومية «الإفطار الإسرائيلى»: كل أنواع الجبن، البيض بكل أنواعه، لحوم، نوع من السمك مكتنز وافر اللحم يقدم مملحاً بملح خفيف، مربات، عسل نحل، زبادى، عصائر، فاكهة، كومبوت، كل أنواع السلطات التى اخترعها البشر. عدة أصناف من الخبز والكعك بالإضافة لعدة أنواع أخرى لا أعرف لها اسماً.... لماذا؟

باستعراض ما نعرفه عن تاريخ الشعب اليهودى ولست أزعم أننى خبير به، أقصد من خلال المعلومات البسيطة التى يعرفها رجل الشارع أستطيع أن أقول: الشعور الجمعى بعدم الأمان هو الذى صاغ هذا الإفطار.

«هذا يوم جديد.. أنت محظوظ لأنك بقيت حياً حتى الآن.. ولكن لا أحد يعلم ماذا سيحدث لك.. كل ماطاب لك الأكل... املأ معدتك.. هل تريد صنفاً آخر.. خذ.. وصنفاً ثانياً؟.. خذ.. وثالثاً ورابعاً وعاشراً... المهم هو ألا تشعر بأنك تشتهى شيئاً، فقد تحرم فى اللحظة القادمة من أى طعام.. لا أحد يعرف ما ستأتى به اللحظة التالية».

وماذا عن الاصطباحة الدمياطى.. هل وراءها الشعور الجمعى بعدم الأمان أيضاً؟

لا... بل على العكس. هى تعكس شعور العقل الجمعى بأعلى درجات الطمأنينة والراحة والتميز. أنت رب عمل وصاحب ورشة. استيقظت مبكراً لتكون أول من يباشر العمل، هذه الاصطباحة الفاخرة من نصيبك مكافأة لك على تميزك عن الآخرين، أنت قادر على دفع ثمنها لأنك تكسب أكثر منهم بنتيجة لجدك ونشاطك. كانت هذه الوجبة منذ خمسين عاماً تتكلف حوالى أربعة قروش بينما الإفطار العادى لا يتكلف أكثر من قرش واحد أو قرش ونصف. بعد ثلاث ساعات ستتناول طعام الإفطار العادى، سندوتش فول وطعمية، ستأكله وسط

عمالك، فلا يحسدك أحد، أو يتضايق منك أحد.. لا أحد منهم سيعرف أنك اصطبحت، لم يرك أحد منهم وأنت تستمتع بالاصطباحة.. فقد كانوا جميعاً يغطون في نوم عميق.

***

في الصباح صحبني ساسون إلى احتفال في قاعة كبيرة بالجامعة، تستقبل فيه السيدة شولاميت ألوني وزيرة الثقافة والبحث العلمي الأدباء والكتاب والفنانين، وهناك قابلت أبي ناثان، وهو أشهر رموز السلام في المنطقة، لقد رهن مطعمه واشترى طائرة صغيرة وطار بها إلى مصر قبل عقد اتفاقية السلام فأعاده المصريون إلى إسرائيل فوجهت إليه تهمة الإقلاع بدون ترخيص، وكان لديه سفينة تقف خارج المياه الإقليمية حولها لمحطة إذاعة تذيع برامج مطالبة بالسلام ثم دخل السجن لأنه انتهك القانون الذي يمنع الاتصال بالفلسطينيين أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية. أول ما يدهشك في أبي ناثان هو وجهه الأسمر الذي يفيض بالطيبة والسماحة وكأنه وجه فلاح مصري من عصر ماقبل السفر للخارج. لاشيء في ملامحه يدل على العناد والتحدي وحب المغامرة.

خارج القاعة وقفت شولاميت ألوني وألقت كلمة قصيرة، لاحظت أنه لا أحد من وكلاء الوزارة وكبار موظفيها كانوا يتبعونها أينما سارت، وكأنها إحدى المدعوات، في الغالب كل موظفي الوزارة كانوا في أجازة

في ذلك اليوم. تعبت من الوقوف فانتحيت جانباً وجلست إلى إحدى الموائد البلاستيك في الحديقة خارج القاعة، فجاءت شولاميت وجلست معي، هي لاتتكلم كثيراً بل تستمع طول الوقت، لعل السبب في ذلك هو أنه لا أحد في وجودي تتاح له الفرصة أن يتكلم كثيراً أو قليلاً إلا في ظروف تاريخية نادرة.

في طريقي للفندق لمت نفسي كثيراً على ما قلته للسيدة شولاميت، أحسبه تخطى حدود الأحلام بكثير واقترب من حدود العبط أو لعله تجاوزها، قلت لها: سيدتي.. بعد أن يسود السلام المنطقة.. هناك مهمة شاقة تنتظرك أنت وزملاءك وزراء الثقافة والتعليم في المنطقة.. لابد من مناهج تعليم جديدة يتعلم فيها الأطفال أنه لا أحد منهم أفضل من الآخر لأي سبب.. نريدهم أن يتعلموا جميعاً أن هناك إلهاً واحداً للجميع.. وأننا جميعاً ننتمي لقبيلة واحدة... و... و...

تركتني شولاميت أتكلم ثم أجابت في اقتضاب: أنا مقتنعة...

كلمتان فقط، لم تقل أنا مقتنعة بما تقول، بل قالت: أنا مقتنعة، ثم تطلعت إلى وجهي في نظرة صامتة طويلة وكأنها تتساءل بصمتها:

- ولكن هل الآخرون مقتنعون؟

طلبت السيدة شولاميت بعد ذلك بعدة أيام أن أقابلها في مكتبها ولكني للأسف كنت قد غادرت تل أبيب مواصلاً جولتي، الواقع أنني أشعر باحترام كبير لها. هي رجل دولة إن صح التعبير، وهي مثقفة

جادة وشجاعة تعلن آراءها السياسية فى بساطة وجرأة حتى لو أغضبت زملاءها ورئيس حكومتها .

***

ساسون يقدمنى ويقدم لى عشرات الأشخاص، عشرات الأسماء ولكن أذنى ليست مدربة على التقاط الأسماء العبرية والاحتفاظ بها، أحد الأشخاص قدم لى نفسه على أنه سورى من حلب.. ثم أضاف: سأكون أول ملحق ثقافى فى سفارة إسرائيل فى دمشق.

فوجئت بجملته ولم أعلق عليها وبدأ عقلى يعمل بسرعة ، لم يقل أرجو أن أكون كذا.. أو أتمنى أن أكون كذا.. بل قال سأكون. هل المفاوضات بين إسرائيل وسوريا وصلت إلى الحد الذى يجعلهم يختارون أفراد السفارتين ؟ أم أنهم فى إسرائيل يعملون طبقاً لنظرية الاحتمالات، من المحتمل أن نتوصل لسلام مع سوريا قريباً، من سيكون السفير ومن سيكون الملحق الثقافى حسناً.. أبلغوه ليستعد بالدراسة اللازمة من الآن.

***

عدت إلى الفندق وأنا أكاد أختنق من الحر والبدلة الكاملة وربطة العنق التى تضغط على الدمل. موظفو مكتب الاستقبال تعلو وجوههم جميعاً صرامة غير مريحة، فتاة واحدة كانت أقرب إلى الابتسام، هى جميلة وممتلئة فى غير بدانة وترتدى نظارة طبية بيضاء بإطار عريض لا يخفى ملامحها..

- من فضلك، لقد سمعتهم ينادونك راخيل.. ماهو النطق الصحيح لاسمك.. هل هو راشيل أم راخيل؟

* بالعربية راشيل.. في الغرب ينطقونه ريتشل وبالعبرية راخيل.

- حسناً ياراخيل.. ليكن اسمك مختلفاً في كل اللغات.. ولكن.. هناك شيء واحد ثابت ومؤكد في كل اللغات..

* ماهو..

- أنت جميلة.

قلت لها ذلك بطريقة جادة وصارمة فضحكت وابتسم كل زملائها. ومنذ تلك اللحظة، خلعوا ذلك القناع الصارم الذى يضعونه على وجوههم كلما رأوني أو تحدثوا معي.

***

في الثامنة مساء جاءني فاروق غنيم، وهو الرجل الثاني في السفارة المصرية، دعاني وساسون للخروج، هو في حوالي الخمسين من عمره، يتسم بقدر عال من الذكاء والحماس والوطنية، وهي الصفات التى تميز غالبية من يعملون في السلك الدبلوماسي. المدهش في البيروقراطية المصرية أنها تراعي المواصفات القياسية العالمية عند التصدير، الأماكن الحساسة والخطرة في الخارج يرسلون إليها الأذكياء، أما الأغبياء فهي تغذى بهم السوق المحلية.

دعانا للجلوس فى كازينو فاخر فى تراس عريض يطل على الشوارع، طلبنا أنواعاً من السلطات. بالقرب منا كانت تجلس عدة فتيات فى ملابس أنيقة محتشمة. بعد دقائق جاءت واحدة منهن تطلب ولاعة لتشعل سيجارتها، أشعلتها لها ثم عدنا للانهماك فى الحديث باللغة العربية، ولكن هل هى حقاً جاءت تطلب ناراً أم تشعل البيت ناراً؟ بعد لحظات ألقيت عليها نظرة سريعة ففوجئت بها تخرج من حقيبة يدها ولاعة وتشعل سيجارة لزميلتها. لقد فشلت أقدم وسيلة للاقتراب عرفتها السينما المصرية: تسمح تولع لى.

فى العاشرة مساء استأذن ساسون فى الانصراف فلديه موعد فى البيت، واصلت الحديث مع فاروق، جاءت فاتورة الحساب ولمحت المبلغ الذى أخرجه فاروق من جيبه، كان حوالى ١٧٠ شيكل، آه.. ياللمسكين، حوالى مائتى جنيه فى ثلاثة أطباق من السلطة وبعض الحلوى والقهوة، صحيح هى سلطات غنية ومدعومة بأشياء غريبة، ولكنها فى النهاية، سلاطة.

أعادنى فاروق إلى الفندق وجلسنا نتحدث فى البهو حتى الساعة الواحدة، كان اليوم هو الخميس، اليوم التالى لوصولى تل أبيب، أكدت له أننى سأزورهم فى السفارة فى يوم الأحد القادم حيث إن الجمعة والسبت أجازة.

أســـئلة تاريخيـــة

أدّى مرهم الأكتيول مهمته، فى الصباح اكتشفت أن «الدمل» قد فتح، لابد أن يرانى طبيب فوراً، لا داعى للإهمال فقد يتلوث الجرح وينتهى الأمر بمأساة. البكتريا توحشت الآن لطول معاشرتها للبشر، أصيبت بالعدوى، انتقلت إليها عادة أكل لحوم البشر من الإنسان، فهو المخلوق الوحيد الذى يفعل ذلك.

قراءتي لأعمال «ماركيز» تشعرني بالفزع من الإصابات التافهة. في إحدى قصصه القصيرة أصيبت البطلة بشكة بسيطة في إصبعها من شوكة وردة في باقة زهور أهديت إليها في بداية رحلة شهر العسل، وبدأت إصبعها تنزف، عجزت هي وعريسها عن إيقاف النزيف بينما هما في السيارة يعبّران أوربا في طريقهما لباريس، في باريس كانت قد أغمي عليها، أدخلوها غرفة الإنعاش على الفور... وماتت.

***

موعدي مع كارين وزوجها في الثانية عشرة ظهراً، سأطلب منها أن تأخذني لأقرب مستشفى في يافا، ليس لأنني أريد أن يراني طبيب عربي، ولكن لأنني أريد ممرضة تتحمس لعلاج مؤلف مسرحية مدرسة المشاغبين. إنني أحمد الله على أني لست مؤلفاً مسرحياً آخر. هل كانت الحكيمات والممرضات في الناصرة سيبدين اهتماماً بي لو قلت لهم أنني مؤلف الملك لير؟.. أو هاملت؟

جاءت كارين ومعها زوجها وهو إنسان مبتسم دائماً ودمث الخلق، لا وقت للذهاب إلى يافا، فلدينا موعد في اتحاد الكتّاب الآن وبعده مباشرة سنذهب إلى التليفزيون للتسجيل في برنامج باللغة الإنجليزية، حسناً لنذهب لأي مكان قريب.

ذهبنا لعيادة مخصصة للطوارئ، يبدو أنها مخصصة للحالات الطارئة الخفيفة.. كم أجر الكشف؟

ـ مائة وأربعون شيكل..

طبعاً القارئ ينتظر مني أن يُغمى عليّ بعد معرفة الرقم المطلوب، أو أن أساوم، لم أساوم طبعاً، دفعت المبلغ في استسلام وأنا أفكر في أجر الكشف عند أعظم طبيب مصري.

الطبيب شاب أنيق، إنجليزيته السليمة وملامحه تقولان بوضوح إنه يهودي غربي، بل إن غربيته مازالت طازجة، بلمسات خفيفة دار حول الكيس الدهني بأصابعه.. أردت أن أزيل الثلج بيني وبينه فقلت: لمسات أصابعك رقيقة يا دكتور.

أردت أن أغريه بمواصلة العمل ولكن يبدو أن الشرق شرق والغرب غرب كما قال «كبلنج»، توقف عن العمل وقال: بشرتك حساسة جداً.

أخرجت الروشتة التي كتبها طبيب مستشفى الناصرة وأريتها له، حدث ما توقعته بالضبط، نظر إلى الروشتة تلك النظرة التي أعرفها جيداً، النظرة المتعالية المستهجنة التي تسبق الجملة الشهيرة: حمار مين اللي كتب لك العلاج ده؟

ولكنه لم يقلها، بل قال: هذه المضادات الحيوية لا صلة لها بما تعانيه.

ـ كيف؟.. أليست مضادات حيوية قادرة على مقاومة الميكروبات؟

* هي صالحة للتعامل مع السطح فقط.. لقتل أي بكتريا على الجلد

نفسه.. ولكن ما سبب هذا الورم؟.. هى لا تعالج السبب.. لا تنزعج، لا تظن أن سبب الورم شيء فظيع.. انظر.

أمسك ورقة وقلماً ورسم دائرة ثم وضع نقطة بداخلها قريباً من محيط الدائرة: هذا هو السبب الذى لا نعرفه.. وهو يضحك الآن ساخراً من هذه المضادات الحيوية، لأنه يعرف أنها لن تؤذيه.. بل هو يأكلها مستمتعاً... لابد أن نعرف السبب أولاً لنقضى عليه..

ـ وكيف نعرف السبب؟

* بالمعمل.

ـ معمل..؟

* نعم..

ـ كم سيكلفنى هذا المعمل؟

أجاب ببساطة وكأنه يتكلم عن مبلغ حقير: يعنى.. حوالى ٢٠٠ شيكل.

يا إلهى، يبدو أن رحلتى وفلوسى أيضاً ستضيع بين المعامل والأطباء. عاد يقول: أليس من الجائز أن يكون السبب هو.. «اللاشمانيا»؟

ـ وما هو اللاشمانيا يا دكتور؟

* طفيلى.. وهو يسبب هذه الأعراض بالضبط.

كانت هذه هي المرة الأولى التى أسمع فيها اسم هذا الطفيلي، كارين أيضاً لم تسمع عنه من قبل، وعدتنى أن تكشف عنه فى قاموس طبى عندها.

أحضر أنبوباً صغيراً به مرهم لونه مائل للاصفرار ووضعه على الجرح ثم ألصق عليه ضمادة من الشاش. وصف لكارين عنوان المعمل ووعدنا أنه سيكون هناك في الحادية عشرة صباح يوم الأحد بعد غد ثم أعطانى بطاقة فيها اسم المعمل وبيانات عنه.

- هل تنصحني يا دكتور أن أمتنع عن استخدام هذه المضادات الحيوية؟

* لا.. خذها.

- هل تتفضل وتعطينى اسم ذلك المرهم الذى وضعت لى منه الآن؟

كتب لى اسم المرهم، كان هذا هو ما أريده منه، لقد قام بواجبه على أكمل وجه، ولكنى لم أشعر للحظة واحدة أنه اهتم بى، إن الاهتمام درجة أعلى من مجرد أداء الواجب، لم أشعر بسريان ذلك التيار الكهربى الذى يتولد عن الاهتمام وكأنه تناول وجبة من الثلج فى طعام الإفطار. لم يفلح فى أن يجعلنى أصدقه، فظلت المسافة بينى وبينه بعيدة جداً فلم أصدق كلمة واحدة مما قاله لى، يبدو أن كارين أيضاً قد شعرت بذلك.

* كارين، ماذا سنفعل؟.. هل نتقابل الأحد لنذهب إلى المعمل؟

- سنأخذ رأى الدكتور ساسون.. ربما كان لديه حل أفضل..

***

اشتريت المرهم وعدة ضمادات من الشاش والبلاستر ودفعت ٧٥ شيكل، ثم ذهبنا إلى التليفزيون، البرنامج باللغة الإنجليزية، سنتكلم فيه معاً، مقدمة البرنامج الشابة كانت تلميذة لكارين، مبنى التليفزيون فى تل أبيب قديم ومتواضع للغاية، دخلنا كافتريا بسيطة من الممكن أن تكون كافتريا محطة تليفزيون كفر الشيخ.. السيدة المشرفة على الكافتريا تخطت الستين بقليل، لا معنى لأن أقول أن ملامحها عربية، فلا يوجد على الأرض ما يسمى بالملامح اليهودية والملامح العربية.. قالوا لها: فلان.. من مصر.

أشرق وجهها بابتسامة عريضة والتمعت عيناها بالفرحة، هى يهودية عراقية.

- أريد قهوة سادة..

* أعرف ما تريد.. سأقدمها لك بالطريقة التى تحبها..

التصوير لن يتم فى الاستديو ولكن فى ركن من الفناء الخارجى فى ظل الأشجار، قدمتنى المذيعة وقدمت كارين للمشاهدين ثم وجهت لى السؤال الذى حفظت الإجابة عليه لكثرة ما وجه إلىّ: لماذا أنت هنا؟

وفجأة قالت لى ببساطة وابتسامة: اليوم صباحاً قال الجنرال رافاييل إيتان: إن إسرائيل جسم غريب فى المنطقة وستظل جسماً غريباً فى المنطقة للأبد.. فما رأيك فى هذا الكلام؟

فوجئت بالسؤال وصمت للحظات، ليس لعجزى عن الإجابة ولكن لأن المذيعة ألقت بى بابتسامة عذبة فى فوهة بركان.. سحبتنى إلى مركز الدائرة فى المعركة السياسية بين حزب العمل وخصومه، من الواضح أن إيتان كان يرد على وجهة نظر شيمون بيريز التى عرضها فى كتابه «الشرق الأوسط الجديد».

أعترف أيضاً أننى أصبت بالفزع من وجهة النظر هذه وخاصة عندما يقولها جنرال كان رئيساً للأركان ورئيساً للمخابرات. أمر مثير للفزع أن يقول نفس ما يردده أعدى أعداء السلام وأعدى أعداء إسرائيل. وهل المطلوب منى الآن - أنا الغريب المصرى - أن أرد عليه؟

ماذا لو وجهت له عبارات قاسية وهو الشىء الوحيد الواجب فى هذه الحالة؟ هو فى النهاية رمز شهير من رموز العسكرية الإسرائيلية وأى كلمة منى غير لائقة - أو يعدّها البعض كذلك - ستكون مرفوضة من كل الأجنحة السياسية بل ومن بسطاء الناس. البشر يستمتعون بتوجيه الألفاظ القاسية لرموزهم الشهيرة فى الحكم والسياسة ولكنهم يستاءون جداً من الأغراب إذا اقتربوا من تلك الرموز.

استمرت حيرتى عدة ثوان ثم أجبت: السؤال هو.. هل هو يريد

ذلك ؟. هل يسعده ذلك ؟.. أن تكون إسرائيل جسماً غريباً فى المنطقة وتظل جسماً غريباً..؟.. وماذا سيفعل هو لكى يمنع ذلك ؟.. ماذا سيفعل لكى لا تظل جسماً غريباً فى المنطقة.. وإذا افترضنا صحة كلامه من أن إسرائيل جسم غريب وستظل جسماً غريباً.. هل يكون الأمل والنتيجة فى المستقبل القريب أو البعيد أن تقضى على المنطقة أم تقضى المنطقة عليها، أم يظل الصراع دائراً بينهما إلى الأبد مخلفاً لنا الفقر والتعاسة والحرب التى لا تنتهى.. هذا الكلام لا يحقق السلام بأى معنى ولا يؤدى إليه.

***

أعادتنى كارين إلى الفندق، فى الرابعة بعد الظهر جاءنى جابى روزنباوم، وأجرى معى حواراً طويلاً عن الحوار فى المسرح المصرى كجزء من رسالته للدكتوراه، فى الخامسة جاء ساسون. فى الخامسة والنصف جاءت سيارة أرسلها تليفزيون القدس لكى أحضر تسجيلاً على الهواء فى السابعة تماماً. ذهبت ومعى ساسون، المسافة حوالى ساعة، عندما اقتربت من القدس استولى على إحساس بالسكينة لم أشعر به من قبل، الطريق صاعد فى الجبل تحوطه الخضرة، لا أحد على وجه الأرض قادر على وصف الطريق إلى القدس، إذا تخيلت طريقاً برياً صاعداً إلى الجنة فلا بد أنه هو هذا الطريق المؤدى للقدس.

هنا بالفعل كان يجب أن تتجمع الأديان الثلاثة، الطريق يصعد بك

بين الجمال وكأنك بالفعل فى طريقك إلى الجنة. وإذا كان المعتزلة يقولون: إن الشيء يكون حراماً لأنه قبيح وليس قبيحاً لأنه حرام، فأنا أقول: القدس مقدسة لأنها جميلة وليست جميلة لأنها مقدسة.

الآن فقط فهمت لماذا قتل الناس بعضهم البعض من أجلها على مدى آلاف السنين، والآن يجب أن تكون لدينا الشجاعة والإرادة لننهى مشوار القتل الطويل لكي ننعم جميعاً بجمالها وقدسيتها، جاء الوقت الذى تكون فيه القدس قولاً وفعلاً وحقاً مدينة السلام.

***

لم أكن أرتدى البدلة، كانت ستعطينى طابعاً رسمياً لست فى حاجة إليه، كنت أرتدى ملابس (جينز) بسيطة، قال المخرج: إن لون الجاكت ليس منسجماً مع الخلفية فخلعته، يوسف إسماعيل صاحب البرنامج مقدم برامج شهير فى التليفزيون الإسرائيلى وكاتب أيضاً، تحدثت عن رحلتى، ومرة أخرى أفاجأ بسؤال: ولكننا نعرف أن معظم المثقفين المصريين لا يوافقونك على هذه الرحلة.

أجبت: هذا صحيح، لست أمثل إلا نفسى... ومعى أصوات قليلة.. ولكنى أذكرك بأن الأصوات القليلة التى تؤمن بما تفعل هى التى تصنع التاريخ.

ولكن لماذا فوجئت بالسؤال؟

لأكن صريحاً، عقلى ليس مدرباً على التخلى عن المجاملة فى

برامج التليفزيون، أمام الكاميرا نحن مهذبون جداً، نبتعد عن الإحراج، لا داعي لقول الحقيقة إذا كانت ستغضب البعض وهي ستغضبهم في كل الأحوال، سنوات طويلة وأنا أبتسم أمام المذيعة التي لا تسمع كلمة واحدة مما أقول منتقياً ألفاظي وغاية مرادي هو ألا أكذب، ألا أنافق، ولكن شرف العقل سيظل إلى الأبد هو قول الحقيقة وليس مجرد الابتعاد عن الكذب.

كنت أتصور أن حواري مع يوسف لن يتخطى دائرة الترحيب والمجاملة، ولكن ها هو ببساطة يقول لي ما معناه: معظم المثقفين عندكم لا يؤمنون بالسلام.

هو سؤال فخ واختبار كاشف لمعرفة من أنا. هل سألف وأدور في الإجابة دفاعاً عن المثقفين المصريين مخترعاً واقعاً لا وجود له، أم أعترف بالحقيقة ببساطة؟ صياغة السؤال بالغة الذكاء، هو لم يتهم المثقفين المصريين بأنهم لا يوافقون على السلام حتى لا أرد عليه بأنهم يوافقون عليه ويريدونه بشرط كذا وكذا.. وأن وجهة نظرهم هي كذا وكذا.. ولكنه حصر سؤاله في رحلتي نفسها، وأن معظم المثقفين لا يوافقون عليها، وهذا صحيح، لذلك كان يجب أن أعترف بوضوح أنه صحيح، وأنني لست في إسرائيل ممثلاً للحركة الثقافية المصرية أو مندوباً عنها، ولكني أمثل نفسي وأصواتاً قليلة جداً لديها الشجاعة لتعلن ما تفكر فيه.

***

عدنا من القدس إلى تل أبيب بعد انتهاء التسجيل مباشرة لنلحق بموعدنا على العشاء فى منزل فاروق غنيم فى التاسعة مساء، ياله من يوم مشحون، مررنا على منزل ساسون لاصطحاب السيدة زوجته، من أجمل الأمور فى الدنيا أن يدعوك دبلوماسى مصرى إلى العشاء وخاصة عندما تكون زوجته سيدة كريمة وطاهية ماهرة، همس فاروق فى أذنى: عاوز فلوس؟.. أرجوك إذا احتجت أى شيء فى أى لحظة اتصل بى فوراً.. هذا هو رقم تليفونى الخاص فى السفارة، وهذا هو رقم تليفون المنزل.

- ياعزيزى فاروق.. صدقنى معى ما يكفينى.. وإذا احتجت فلوس فى أى لحظة سألجأ إليك.

يبدو أن كل ما يحدث فى هذه الرحلة تاريخى بالفعل، بمعنى أنه يحدث لأول مرة فى التاريخ. لم يحدث فى حياتى السابقة كلها أن سألنى مخلوق: عاوز فلوس؟

لقد وجهت إلىّ من قبل ملايين الأسئلة ولكن ليس من بينها هذا السؤال البسيط المدهش التاريخى.

***

كان من المفروض أن نذهب اليوم إلى حيفا لنقابل الروائيين سامى ميخائيل وإميل حبيبى لنحضر معهما ندوة فى أحد الكيبوتزات ثم نقضى ليلتنا فيه، ولكن ساسون عدل البرنامج وفضل أن نذهب لزيارة صديقه الدكتور ماركوس ليكشف علىّ ويصف لى العلاج اللازم.

ماركوس طبيب جراح أحال نفسه إلى التقاعد مبكراً وتفرغ للمهمة الوحيدة التى يحلم بها العقلاء وهى: الاستمتاع بالحياة.

وإذا كان شكسبير يرى أن الحياة مسرح كبير، فمن المؤكد أن ماركوس يراها مطعماً كبيراً يقدم اللحوم المشوية. عندما تراه وهو يهوى على اللحم باستمتاع فوق الشواية الكبيرة التى نصبها فى الحديقة ثم وهو يتحرك فى استعراض بين الشواية والمدعوين، مطلقاً عبارات أقرب إلى الغزل أو أقرب إلى الأشعار المسرحية القديمة يصف بها قطع اللحم والسجق والتوابل الأرچنتينية التى أعدها لها، عندها قد تفكر فى أن شكسبير على حق وأن ماركوس أيضاً على حق، ما الذى يمنع أن تكون الحياة مسرحاً كبيراً نصبت عليه شواية لحم كبيرة والمتفرجون يستمتعون بالأكل وبأداء الدكتور ماركوس فى وقت واحد..

هى ڤيلا بسيطة وسط حديقة كبيرة نصبت فيها مائدة طويلة جلسنا إليها مع عدد من أصدقائه من الجنسين. الهواء النقى فى تلك الضاحية والسجق واللحم المشوى ووجودى بين بشر يحبون الحياة أشعرنى بالاسترخاء وبقدر من البهجة. الغريب فى الأمر أن ماركوس يحمل نفس ملامحى ولكنه أصغر منى فى السن قليلاً وأكثر بدانة، تنبهت لذلك عندما قال لى ساسون وهو محق فيما قال.. لقد قال لى أنه سيقدم لى النسخة المصرية منى.

اقتربت من ماركوس الذى كان يقلب اللحم على الشواية بمهارة

جراح وتناولت قطعة لحم غارقة فى الصلصة البنّية. سألته بعد أن تذوقتها: هل هى بتلو؟

أجاب: كثيرون يظنونها بتلو.. الواقع هى ديك رومى غذيته بشكل خاص..

ماركوس يربى دواجن وأبقاراً ويشرف بنفسه على زراعة مزرعته الصغيرة، من خلال الحديث عرفت أن له صلة قوية بالأرجنتين.. ما هى اللاشانيا يا دكتور؟

- تقصد اللازانيا.. هى نوع من المكرونة الإيطالية تطهى بالطريقة الفلانية ويضاف إليها كذا.. وكذا.. ثم توضع فى الفرن.. ثم..

* لا يا دكتور ماركوس.. أنا أقصد الطفيلى..

- الطفيلى.؟ تقصد اللاشمانيا.؟

* نعم..

- هو موجود فى الخضروات التى تزرع على ضفاف الترع.. نعم، هو موجود عندكم.

أصابتنى إجابته بالرعب، هل هناك احتمال حقاً فى أن أكون مصاباً بذلك اللاشمانيا اللعين؟

بعد أن عدت إلى مصر سألت أصدقائى الأطباء فى ندوة نجيب محفوظ عن هذا الطفيلى فعرفت أنه موجود نظرياً فقط، بمعنى أنهم

درسوه ولايعرفون أحداً أصيب به، وقال لى طبيب بيطرى: أن الجِمال تصاب به.. ولكن المراجع لم تذكر أنه يصيب كتّاب المسرح.

امتلأت بطون الجميع باللحم وملحقاته، أصبحوا أكثر رقة، إنها تلك اللحظات الممتعة التى يحلو فيها للبشر أن يتذكروا متاعبهم، بدأ الحديث عن الجيل الجديد.. عن المتاعب التى يسببها لهم أولادهم.. هذا جيل لا يتحمل المسئولية، اتصلت بى أختى من الأرجنتين ورد عليها ابنى، لم أكن موجودة، ولم يخبرنى بذلك عندما عدت.. وتكررت تلك الحكاية عدة مرات.. فغضبت منى أختى.. لماذا لم تقل لى أن أختى اتصلت؟

أجاب: لم تطلب منى أن أخبرك، لقد سألتنى، فلانة موجودة؟ فقلت لها لا... تصور، ابن زوجى يعنفنى لأننى أتكلم فى التليفون وأنا أقود السيارة.. وأخيراً هددنى بأنه سيرفع التليفون من السيارة.. أويمنعنى من قيادة السيارة نفسها.. تصور، الولد يعلمنى كيف أقود السيارة؟! وأنا الذى علمته كل شيء فى الحياة.. هو الآن وصىّ علىّ.

***

فى صالة الفيلا الداخلية بعيداً عن المدعوين رفع ماركوس الضمادة الشاش: لا.. ليس هذا لاشمانيا.. هذا كيس دهنى أُصيب بعدوى فالتهب وتحول لدمل.. لحظة واحدة.

أخذ يعمل، كنت أتألم، ولكنه كان يحدثنى كما لو كان يتعامل مع طفل، نسيت أن أقول لكم إن ماركوس كان يعمل جراح أطفال، نعم أنا أعرف أنك تتألم... ولكن كل ذلك سينتهى الآن.. لا شيء.. أنت لست

مصاباً بشيء.. لقد أخرجنا كل ما به من سموم.. والآن أنا أطلب منك أن تنظفه بالماء..

- بالماء؟

* نعم، قرب منه الدش واجعل الماء يندفع فيه بقوة لينظفه.

- في بلدي يحذروننا من أن يصل الماء إلى الجرح..

* نظفه بالماء.. افعل ما أقوله لك.

وجهي تبدو عليه الدهشة وعدم التصديق، كنا من عالمين مختلفين، كان يحمل نفس ملامحي ونفس حبي للحياة ونفس إعزازي للحم المشوي غير أننا قد اختلفنا الآن، أحدنا لايصدق الآخر.

كل مصائب البشر تبدأ عند هذه النقطة، عدم تصديقي لكلامه يعني الطعن في كفاءته كطبيب، أراد أن يلفت نظري في تهذيب إلى أنه جرّاح مسئول عما يقول فقال لي: أساتذتنا من كبار الجراحين علمونا أن أعظم طريقة لتطهير الجرح هي استخدام الماء.

هذا هو ما حدث فعلاً، نظفت الجرح بالماء وجففته ووضعت عليه قطعة بلاستر طبي صغيرة، كنت على يقين من أنني في طريقي للشفاء، وأن ماركوس عالجني العلاج الصحيح، ليس لأنه طبيب جيد ولكن لأني أصدق وأثق في هؤلاء الذين يحبون الحياة وليس في هؤلاء الذين يزعمون أنهم يفهمونها. أين أنت يا «أستير» لم أعد أضع مرهم الأكتيول.

في الجامعـــة

لقــاء مـع أســاتذة الأدب العــربي والمســرح وطلبــة الدراســات العليــا بجــامــعــة تل أبيب، الجــو حــار، أكــاد أخــتنق داخل البـدلـة وربطة العنق، قـدمني ســاسـون للمحاضـرين في كلمـة مـوجـزة ثم أمـسك بكتـاب باللغـة الإنجليزية وفتحه عند صفحة معينة وناوله لواحد من الطلبة .

ـ هذا الكتاب ألفه الدكتور مصطفى بدوي من جامعة أكسفورد عن

الأدب العربي.. سنسمع الآن ماذا كتب عن علي سالم.

قرأ الشاب الصفحة على الحاضرين. من المدهش أن الدكتور «تريفور لي جاسك» أستاذ الأدب العربي في جامعة ميتشجان عندما قدمني لأساتذة الجامعة منذ خمسة أعوام، استخدم مرجعاً في الأدب العربي لنفس الأستاذ.

ساورني الإحساس بأن ساسون يريد أن يقول للحاضرين: لا تظنوا أننا نعطي لهذا الرجل مكانة لا يحتلها بالفعل لمجرد أنه جاء إلى إسرائيل.. اسمعوا ما يقوله عنه أستاذ الأدب العربي في جامعة أكسفورد.

***

قلت لهم: أيها السادة، بالرغم من شدة الحر، ارتديت بدلة كاملة لكي أعبر لكم عن مدى احترامي لكم ولهذه المناسبة، ولأثبت لكم أيضاً أن لدي بدلة.. أما الآن فأنا أريد أن أكون نفسي وأجلس معكم على راحتي.

على الفور خلعت الجاكت وربطة العنق وشمّرت أكمام القميص، وحينئذ انفجروا ضاحكين وهم يصفقون. هناك سؤال وجه إلي مرتين في لقاءين متباعدين: هل يستطيع الكاتب عندكم العيش من الكتابة؟

- نعم.. نسبة كبيرة من الكتاب تستطيع العيش من الكتابة وأنا واحد منهم.

لو أن هذا السؤال وجه إليّ هنا في مصر لأجبت إجابة أطول من ذلك بكثير، في الغالب كنت سأرد عليه: الكاتب يستطيع العيش بصعوبة أو على الكفاف من الكتابة، ولكنه يستطيع أن يحيا حياة رغدة عندما يمتنع عن الكتابة أو يعجز عنها.. هذا يتوقف على معنى الكتابة. عندما تقرأ للكتاب الأثرياء في مصر، ستكتشف أنهم اخترعوا نوعاً جديداً من الكتابة من الممكن أن نطلق عليه اسم «الكتابة منعدمة الكتابة»، هي كتابة «دايت» منعدمة السعرات الحرارية.

سؤال آخر: هل توجد عندكم علاقات شخصية بين رجال السلطة والأدباء؟

أجبته: لا أصدق أنه توجد على الأرض علاقات ودية بين السلطة والأدباء.. أنا أعرف أن شيمون بيريز يقول أحياناً، واتصل بي صديقي الكاتب عاموس عوز وقال لي كذا.. وكذا... وهنا ضحك الجميع، يبدو أن بيريز يستخدم هذه الجملة كثيراً.

بيريز حالة خاصة جداً بين رجال السلطة والسياسة، هو أديب ضلّ طريقه فأصبح رجل دولة، أو لعله يعيش في المنطقة الحرة على الحدود بين الدولة والأدب، ولكني بشكل عام لا أتصور علاقة ود بين رجل السلطة ورجل الحروف.. العلاقة بينهما حذرة وأقرب للكراهية.. وخاصة كاتب المسرح، هي علاقة صراع ينتهي عادة بإسكات الأخير أو نفيه أو سجنه.. حدث هذا للكثيرين في العالم كله.. المرة الوحيدة في

التاريخ التي خرج فيها رجل المسرح من السجن ليصبح هو نفسه رجل الدولة، كانت في حالة «ڤاتسلاڤ هاڤيل» في تشيكوسلوڤاكيا..

هذا هو الاستثناء الوحيد الذي يثبت القاعدة، هناك قدر كبير من الغيرة بين رجل السياسة والمبدع.. أنت تكتب شيئاً فتخرج الناس الفلوس من جيوبها لتقرأه وتشاهده، الناس تخرج من بيوتها وتتجمع عندك في المسرح وتدفع فلوساً لسماع ما تقول.. بينما أنا أفعل المستحيل لكي أجد من يسمعني..

تناولنا طعام الغداء في المطعم المخصص للأساتذة، في كل جامعات العالم الكبيرة هناك مطعم فاخر يقدم طعاماً غير فاخر، أنا أفضل الكافتريات المخصصة للطلبة، هي أقرب إلى قلبي ومعدتي..

***

ـ عزيزتي راخيل.. هل قلت لك أنك جميلة اليوم؟.. أنا آسف، لقد نسيت لكثرة انشغالي.. والآن يا عزيزتي سأكلمك في نقطتين.. الأولى هي أنك جميلة، الثانية وهي الأقل أهمية، هي أنني مسافر غداً الاثنين إلى بير سبع.. سيرسلون لي من هناك سيارة.. هل أطمع في أن أترك سيارتي في مكانها عندكم هذين اليومين؟

* بكل سرور.

كان ساسون متخوفاً من أن يرفض الفندق بقاء السيارة في فنائه

أثناء غيابى وعزم على أن يكلم المسئولين عن جراج الجامعة ولكنى طمأنته فقال لى: من الواضح أنهم يحبونك فى الفندق.. كان ساسون مهموماً بهذه المسألة ولكنى كنت واثقاً أن راخيل ستساعدنى، كيف تفقد زبوناً يقول لها أنها جميلة مرتين على الأقل يومياً؟

قد تسأل : وهل راخيل لديها الصلاحية باتخاذ القرار فى الفندق؟

والإجابة : أثبت التاريخ أن المرأة الجميلة فى أى مكان، فندق أو حكومة، لها صلاحية اتخاذ القرار.

***

- ألو.. أنا عوز ميللر.. شاعر وقائد أوركسترا تل أبيب.

* أهلاً وسهلاً.

- هل ممكن أن أقابلك؟

* تفضل.

وجاء إلى الفندق، طفل جميل فى حوالى الستين من عمره، يتكلم الإنجليزية ببطء ووضوح: عند زيارة الرئيس السادات للقدس، كتبت قصيدة شعرية وأرسلتها له، فرد علىّ بهذا الخطاب الشخصى..

أنا أريد أن أقود أوركسترا القاهرة السيمفونى.. على أن ترسلوا فى المقابل مايسترو من القاهرة ليقود الأوركسترا فى تل أبيب.. هذا هو أملى وحلم حياتى.

كان يتكلم بصوت خافت وابتهال وكأنه يتلو صلاة، شعرت بالألم، كيف أشرح له؟

. يا عزيزى عوز.. صدقنى أنا مجرد فنان مصرى.. ليس لدى نفوذ ن أى نوع.. ولكن لى أصدقاء فى وزارة الثقافة.. سأبلغهم برغبتك.

* ما هى العقبات التى تعترض ذلك؟

ـ هناك عقبات كثيرة سيكون من الصعب أن أشرحها لك.. هذه الخطوة لا يمكن أن تتحقق إلا فى إطار خطة ثقافية متكاملة تستهدف تحويل السلام النظرى بين البلدين إلى واقع ملموس على الأرض تشعر به الناس عندنا وعندكم، وبذلك يكتسب السلام نفسه معنى حقيقياً.. ولكن هذا أمر فى حاجة لوقت.

طبعاً أنا أتكلم لغة لا يفهمها هو.. ولا أنا.

* لقد كتب لى الرئيس السادات هذا الخطاب الشخصى.. اقرأ.

الخطاب قطعة أدبية رائعة باللغة الإنجليزية، من الواضح أن كاتب الخطاب فى مكتب السادات كان على وعى بأنه يرد على شاعر ترى من هو؟

ـ نعم يا عوز.. ولكن السادات مات.. وماتت معه أشياء كثيرة.

* ماذا أفعل؟

ـ لا تيأس من المحاولة .. أنت تطلب شيئاً نبيلاً وبسيطاً .. ولابد أن يحدث .. متى .. صدقنى لا أعرف.

وانصرف عوز.

أتصوره الآن جالساً في غرفته يكتب قصيدة شعرية مطلعها .. أريد أن أفهم .. لقد وقعنا اتفاقية سلام مع المصريين منذ سنوات طويلة .. وأنا أريد أن أذهب بالسلامة إلى القاهرة، وأقود الأوركسترا بسلام .. يا سلام.

ثم يرسلون هم بالسلامة مايسترو ليقود الأوركسترا فى تل أبيب بسلام .. يا سلام.

ثم يعود بالسلامة للقاهرة .. على أن يتم كل ذلك بسلام .. يا سلام.

فلماذا لا يحدث ذلك .. يا ليل؟

***

لقاء مع مندوبة «هآرتس» وهى أهم صحيفة يومية .. أرسلت لى المصور قبل موعدنا بساعة، قال لى: لا تؤاخذنى .. أنا مصور محترف، لذلك أنا فى حاجة لوقت طويل.

هو مصور محترف بالفعل، على وعى بأن الإنسان ليس هو نفسه دائماً، وأن وقتاً طويلاً يجب أن يضيع بحثاً عن اللقطة ـ اللحظة. يجب الوصول إلى الصورة التى توضح حقيقتك.

هو من أصول لبنانية: أبى وأمى يتكلمان اللغة العربية، للأسف أنا لا أتكلمها، وهذا أمر يضايقنى، ويعطلنى .. أشعر بأننى أعمل بذراع واحدة.

رنّت إجابته في أذني، عدم إتقانه للعربية يعطله ويشعره بأنه يعمل بذراع واحدة. هو محترف يتقن عمله، ولكن بذراع واحدة، هناك ذراع أخرى تنقصه هي اللغة العربية. عندما يتقنها سيعمل بذراعين، سيعمل بشكل طبيعي، بكامل طاقته، سيكون أكثر احترافاً وإتقاناً.. أليس هذا هو حال إسرائيل؟

ولكن هل أنا الآن أكتشف حقيقة جديدة؟ هي حقيقة قديمة اكتشفها الشاعر الإسرائيلي الكبير «عاميخاي» عندما قال: «إن الزمن ليس هو الذي يبعدني عن طفولتي، ولكنها هذه المدينة، وكل شيء فيها، والآن ينبغي أن نتعلم العربية».

عاميخاي يقطع خطوة طويلة في طريق السلام عندما يطلب من أهله أن يتعلموا اللغة العربية، أنا أيضاً أطلب من هؤلاء الذين يريدون أن يكون لهم دور في مستقبل مصر والمنطقة أن يتعلموا العبرية. هذا مدخل عريض إلى طريق السلام، هو أمر صعب على جيلي فلم تترك لنا الكراهية والحروب مكاناً في عقولنا لتعلمها.

قد يبدو كلامي غريباً الآن في ظل الكراهية التي تغذيها عواصم الصحراء وأنبياء الفاشية، ولكن عندما يسود السلام المنطقة، وتنتصر الحرية وتتحقق حقوق الإنسان الفرد، سينظر الناس خلفهم في دهشة واشمئزاز لما كنا نفعله ببعضنا البعض. سيكون قد جاء الوقت الذي يؤمن فيه سكان المنطقة مثل غيرهم من خلق الله المحترمين، الذين يعيشون

الآن على نفس الكوكب فى أماكن أخرى، أنه ليس أكثر قداسة على الأرض من حياة البشر، وأن كل الأفكار «النبيلة» التى تؤدى إلى قتل الناس وترويعهم وإفقارهم وتحويلهم إلى ضحايا يجوبون الصحراء، متسولين كسرة خبز أو شربة ماء.. لم تكن أكثر من جرائم فى سجل تاريخ المنطقة، وأن أصحاب هذه الأفكار كانوا مجرد مجرمين.

لا يوجد على وجه الأرض، ما هو أكثر قداسة من الحرية السياسية والاقتصادية وحقوق الإنسان الفرد، وكل ما يمنع ذلك، أو يعوقه أو يعطله، ليس أكثر من جريمة.

الطريق إلى بير سبع

الدعوة لمدة ليلتين في بير سبع، موجهة إليك من عبد الله ربيع.

- من هو يا بروفيسير؟

* أعتقد أنه يعمل في بلدية بير سبع.. هو صديق للروائي سامي ميخائيل.

الطريق من تل أبيب لبير سبع يستغرق أقل من ساعتين. قبل بير

سبع بقليل قال السائق: نحن نقترب الآن من الفالوجا .. سأريك المكان الذى كان عبد الناصر محاصراً فيه ..

السيارة تتوقف بجوار حقل.

اخترقت الزمن بنظرة إلى الوراء، هذه البقعة أثرت فى حياتى وفى حياة ملايين البشر، حوصر عبد الناصر هنا ومعه آلاف الجنود، هنا دارت مفاوضات ميدانية فى خيمة بينه ومجموعة من زملائه وبين الضباط الإسرائيليين. هذا أمر طبيعى كثيراً ما يحدث فى ميدان القتال. هناك جملة مهمة قالها «إيجال يادين» فى مذكراته المنشورة فى مجلة أكتوبر: «وفى هذه اللقاءات أدرك هؤلاء الشبان أن معركتهم ليست هنا». وفيما بعد فى كتاب فلسفة الثورة قال عبدالناصر: وهناك أدركنا أن معركتنا الحقيقية فى القاهرة.

وقد كان، بعد أن عادت المدرعات من الفالوجا إلى حظائرها فى صحراء العباسية، استراحت بعض الوقت من عناء الطريق ثم خرجت إلى شوارع القاهرة تخوض معركتها الحقيقية. منذ تلك اللحظة عاش كل سكان المنطقة حالة الحرب العقلية.

عدة ضباط فى عواصم أخرى اكتشفوا نفس الاكتشاف المذهل، أن معركتهم الحقيقية هى فى عواصمهم فخرجوا بمدرعاتهم إلى الشوارع وأزالوا الصيغة المدنية فى الحكم التى تعوق مسيرتهم لتحرير القدس، ثم أزالوا بالتدريج أو بسرعة حقوق الإنسان فى بلادهم، ولكننا نتجنى عليهم

إذا لم نعترف أنهم أفلحوا في إضافة عدة مئات من الآلاف لأعداد اللاجئين، كما استطاعوا إضافة أسماء مئات الآلاف الأخرى لسجل القتلى والجرحى والمشوهين ولم ينسوا بالطبع إثراء سجل الأرامل والثكالى واليتامى.

لابد أيضاً من الاعتراف بأنهم نجحوا في تخليص الأمة العربية من مساحة كبيرة من الأرض كانت عبئاً عليها، دون أن ينسوا أن يضمنوا لأهلها أكبر قدر من التعاسة والعذاب والضياع والسجون والمعتقلات والقتل والتعذيب وتكسير العظام.. و.. و..

أكبر قدر من الانسحاق الذي لم يعرفه شعب في عصر حقوق الإنسان، أكبر حتى مما يستطيعون هم توفيره لشعوبهم.

بعضهم اعتقد أن الطريق إلى القدس يمر بعمّان، وتطلب الأمر ذبح عدة آلاف من الفلسطينيين في يوم أسود لإثبات خطأ هذا الاعتقاد.

البعض الآخر تصور أن الطريق إلى القدس يمر بالكويت وفشل كل خبراء الطرق والكباري العرب في إقناعه بخطأ هذا التصور، فكان لابد أن يأتي الغرب ومعه الوسائل المقنعة التي تثبت أن القدس بعيدة جداً عن الكويت. النكتة التي يقولونها في إسرائيل أن النظام العراقي هو أول نظام عربي يقوم بعملية تطبيع حقيقية مع إسرائيل، كل الصواريخ التي أرسلها إلى إسرائيل سقطت على الأحياء التي يسكنها اليهود العراقيون.

وكانت خسائرنا تافهة، عدة مئات من آلاف القتلى وعدة مئات من

مليارات الدولارات، وشعب بأكمله خلف أسوار جمهورية الرعب يعيش في ظروف لا أعتقد أن الجحيم نفسه قادر على توفيرها له.

كل هذا خطأ.. القدس تتحرر بأن نمضي إليها مباشرة بالطريق السريع، وذلك بمدرعة قوية تسمى الوحدة العربية.. عندما تتوحد البلدان العربية سنزحف ونسترد القدس.. بل فلسطين كلها.

وهنا تخرج المدرعات إلى الصحراء متجهة جنوباً هذه المرة إلى عدن لتدمير أعداء الوحدة العربية، وأعداء الوحدة العربية كما تذكرها المراجع هي.. البشر.. المرافق.. المباني.. البيوت.. محطات المياه.. مصافي البترول.. العدو الحقيقي للوحدة العربية هو الحياة.. لا بد من تدمير الحياة لإنقاذ الوحدة!

إنها حالة الحرب العقلية.

هي حالة تتلبس العقل ولا صلة لها بالحرب الواقعية على الأرض، هي مختلفة عن حالة القتال، في القتال يخطط الجنرالات بشكل واقعي جاد وبلا أوهام من أجل تحقيق النصر الكافي لصنع السلام. أما حالة الحرب العقلية فهي الحالة التي تحارب فيها دون أن تقاتل، تتحول فيها إلى مدفع بلا ذخيرة، وقنبلة دخان ومسدس صوت، وتتحول كل أفعالك وأقوالك إلى أناشيد وهتافات، هي حالة من الكراهية لنفسك وللآخرين، هي أعلى درجات الكذب.

في حالة الحرب العقلية أنت على استعداد للتنازل عن كل حقوقك

كإنسان وهذا هو أسوأ ما فيها. ولإقناعك أن حالة الحرب قائمة، سيضعك الآخرون في خندق ضيق ويطفئون الأنوار فيسود الظلام ثم يديرون شريط المؤثرات الصوتية من خلال مكبرات الصوت القوية، كل أصوات الحرب مسجلة على الشريط، ستشعر فعلاً بالقذائف وهي تنهال على الخندق فتحرص على ألا تتحرك من مكانك خوفاً من أن تصيبك قذيفة، وبعد ضياع الوقت، أقصد ضياع حاضرك ومستقبلك، ستعد نفسك محظوظاً لأنك لم تمت بعد، وحتى عندما يتوقف الشريط لاستبداله بآخر وتسود لحظات قليلة من الصمت سيقولون لك: هذه هي أخطر لحظات المعركة، العدو ساكت لأنه يخطط.. لا تظنه سلاماً.. إنها اللحظات التي يجلس فيها العدو مع الامبريالية العالمية يخططون للقضاء عليك.. احترس.. احترس من أن تخرج من الخندق إلى دنيا الله.. هم يخططون الآن لتحويلك من عربي إلى شرق أوسطي..

عند ذلك يزداد انكماشك داخل الخندق وقد استولى عليك الرعب من أن تتحول إلى كائن شرق أوسطي.

بالطبع أنت لم تسأل: ما معنى السوق شرق أوسطية؟ هل هي مثل سوق الجمعة؟.. وما هي مكاسبي فيها؟ وما هي خسائري؟ وما هي حكاية تحويلي من مواطن عربي إلى مواطن شرق أوسطي؟ وما معنى أن تهيمن إسرائيل على هذه السوق؟ وكيف أمنعها من هذه الهيمنة؟ كلمة هيمنة نفسها.. ما معناها؟

لن تسأل لسبب بسيط، فى حالة الحرب نحن لا نناقش.. لا نسأل.. هل هذا وقته يا رجل؟.. عد إلى الخندق فوراً.

وحالة الحرب العقلية مريحة بل وممتعة وخاصة فى غياب العقل الناقد لأنها تشبع مباشرةً من أقوى غرائز البشر: العدوان.

قال لى صديقى «.... حلمى» - وهو ضابط شرطة مثقف على المعاش، كان يعمل مديراً للأمن فى محافظة الوادى الجديد. وهى محافظة لا تعرف اللصوص أو السرقات، السرقة الوحيدة التى حدثت فيها كانت فى عهده، سُرقت شقته، سرقها الشرطى المخصص لخدمته. أسوق لك هذه الواقعة للتدليل على أنه من الخطر أن تكون مثقفاً ومديراً للأمن فى وقت واحد، ثقافتك ستمدك بقدر من الأخلاق يظنها الآخرون ضعفاً.. هذه هى الفكرة السائدة عن المثقفين عند السلطة وعند اللصوص أيضاً.

قال لى: فى ذلك الوقت من عام ١٩٤٨ كنت طالباً فى مدرسة بنها الثانوية، وجئنا بالقطار إلى القاهرة، كنا عدة مئات، واحتشدنا فى ميدان الأوبرا مع الآلاف، ووقف الزعماء فى شرفة فندق شبرد القديم يخطبون فينا.. حسن البنا، أحمد حسين، فتحى رضوان وصالح باشا لملوم وآخرون غابت عنى أسماؤهم..

قال حسن البنا: المشكلة مشكلة سلاح، إذا كان لابد من السلاح فسنستخلصه من أعدائنا ونلقى بهم فى قاع البحر.

وقال أحمد حسين: إنني ذاهب إلى ميدان القتال بفلسطين حاملاً بندقيتي على كتفي ومن يريد أن يتبعني فله الأجر والثواب.

بالطبع هو لم يذهب إلى فلسطين، فالزعماء عادة أذكى من أن يذهبوا إلى ميادين القتال.

أما صالح باشا لملوم الذى كان يرتدى الملابس العربية التقليدية فقد أخرج مسدسه وأطلق طلقة فى الفضاء وهو يصيح: هذه هى الطلقة الأولى.. أطلقها من أجلك يا فلسطين..

المدهش، أنهم أعادوه إلى الشرفة بعد عدة دقائق بناء على طلب الجماهير ليطلق طلقة أخرى، كما لو كان مطرباً يستعيدونه المقطع الأخير..

وهنا انفجرت الهتافات، ولعل أهمها هو: تكلم السيف فاسكت أيها القلم.

أنا أعتقد أن هذا المشهد يلخص بوضوح الملامح الأساسية لحالة الحرب العقلية، لقد أطلق لملوم باشا طلقة في الهواء من أجل فلسطين، وللمزيد من النشوة طلبوا منه طلقة أخرى من أجلها أيضاً، ومنذ تلك اللحظة توالت الطلقات في الهواء من كل العواصم العربية عبر الميكروفونات وصفحات الجرائد والكاميرات..

منذ تلك اللحظة دار شريط المؤثرات الصوتية.

أما الشعار الذى يطلب من السيف أن يتكلم ومن القلم أن يسكت، فكان من المستحيل تحقيق الشق الأول منه، لأن السيوف كما هو معروف لا تتكلم، اكتفت الأمة العربية بتحقيق الشق الأسهل والأكثر فائدة وهو أن تسكت الأقلام.

سؤال: هل يمكن أن تتحول حالة الحرب العقلية إلى حرب فعلية؟

الإجابة: نعم.. عندما يتعاطى الناس جرعة زائدة منها بقصد الحصول على درجات عليا من النشوة الناتجة عن غياب الوعى... ضع كمية من الأسلحة والذخائر فى حقيبة وضع معها كمية من الأكاذيب والأوهام، أضف إلى الخليط عدداً من الرجال غير المسئولين، أغلق الحقيبة واتركها فى مكان مكشوف بين البشر، حتماً ستنفجر فيهم، بعد عدة شهور أو عدة أعوام.

المرة الوحيدة التى انفجرت فيها الحقيبة ولم تقتل أحداً، كانت فى الانفصال السورى المصرى لأسباب خارجة عن إرادة الأطراف المعنية، لا توجد حدود مشتركة بين السوريين والمصريين لحسن حظ الشعبين.

الحرب الحقيقية والشرعية هى الحرب الدفاعية عندما تكون الاختيار الوحيد. كان لابد أن نحارب فى ١٩٥٦، كانت اختياراً وحيداً، وكان لابد أن نحارب فى ١٩٧٣، كانت اختياراً وحيداً، فى المرتين خاض المصريون حرباً حقيقية لا شأن لها بالتدهور العقلى. أريدك أن تقارن بين أغنية الله أكبر عام ١٩٥٦ وأغنية ولا يهمك يا ريس من

الأمـريكان يا ريس فى ١٩٦٧ . تأمل مـفردات الأغنيـة، حـواليك أجـدع رجال، النار قايدة حرايق، جوة قلوب الخلايق.

هى مجرد خناقة بين الرئيس وأمريكا.. لماذا نموت فيها نحن؟

قارن ذلك بأغنيـة بليغ حمدى عام ١٩٧٣، وأنا على الربابة باغنى. كانت حرب أكتوبر حرباً دفاعـية حقيقية واختياراً وحيداً، هى حرب يقودها مـحتـرفون، تحدث على الأرض وليست حالة هستيرية تحول العقل لقطعة وحل.

قبل أن أسافر إلى إسرائيل ناقشت الكثيرين من أصدقائى المعارضين للرحلة، خشيت أن تغيب عنى زاوية أو عنصر يترتب عليه الإضـرار بمصالح الناس فى مصر، استمعت جيداً لكل ما قالوه، قيلت حجج كثيرة ولكنها جميعاً كانت نابعة من حالة الحرب العقلية، نابعة من الكراهية. الفرق الوحيد بينى وبينهم أننى أريد التخلص من هذه الكراهيـة. قررت أن أشارك فى صنع السلام.

فالسـلام أيضاً حالة عقليـة، وعلىّ أن أرغم عـقلى وعـقول الآخرين على الدخول فى هذه الحالة وأنا واثق كل الثقة أن ذلك سيكون سهـلاً على كل من يطلب الحرية.

يا عزيزى السائق، لقد شاهدت الفالوجا بما فيه الكفاية، هل تسمح بمواصلة السير إلى بير سبع... لقد تأخرنا هنا كثيراً.

الرجـــل الإضرابـــى

الإضرابات ظاهرة تعرفها المجتمعات التى تأخذ بالحرية السياسية والاقتصادية، جماعة من البشر يقررون التوقف عن العمل، والتجمع فى مكان لعرض مشكلتهم على من يرون أنهم قادرون على حل هذه المشكلة. لقد أرسلوا الطلبات من قبل، وأرسلوا الشكاوى، وقابلوا المسئولين، ولكن أحداً لم يستجب لهم، أو لعله استجاب بشكل لا يرون

فيه حلاً لمشكلتهم.

الهدف الحقيقي للإضراب هو الضغط للوصول إلى النقطة التي تصبح فيها «المساومة» مع المسئولين حتمية. المضربون بامتناعهم عن العمل يضعون أصابع المسئولين بين أسنانهم ويعضون عليها بقوة تدريجية، والمسئولون يفعلون نفس الشيء إلى أن يصيح أحد الطرفين: آه.

والإضرابات بالطبع مكروهة من كل أنواع السلطة في كل الأنظمة السياسية، بينما هي مرغوب فيها من كل أنواع البشر. يخطئ من يظن أن البشر يحبون العمل ويقبلون عليه طواعية، هم في كل الأحوال مضطرون إليه.

بالطبع تتعطل مصالح قطاعات كبيرة من البشر بسبب الإضرابات، ولكنها ضريبة الديموقراطية، إنها ارتفاع في درجة حرارة الجسم ينبه ويشير إلى أن هناك خللاً ما في جزء ما واجب العلاج فوراً، وبذلك يتخلص جسم المجتمع من السموم التي تتكون داخل طبقاته ويواصل مسيرته وقد ازداد صحة وعافية.

هناك قواعد للإضراب، لا عصبية، لا تشنج، لا خسائر، لا إتلاف، احذر من أن تغضب الرأي العام أو تؤثر على مصالحه بشكل يحوله ضدك فتخسر قضيتك وتفقد طلباتك.

أما النظم التي لا تأخذ بالحرية السياسية والاقتصادية فهي لا تعرف

الإضرابات وذلك لسبب بسيط، الناس في تلك الأنظمة لا تعمل فكيف تمتنع عن فعل شيء هي لا تفعله أصلاً؟

ولذلك يكون الإضراب الوحيد المتاح في الأنظمة الأخيرة هو أن يعمل الناس وبذلك يضعون المسئولين عنهم في موقف حرج، ويضطرونهم لإصدار المزيد من القوانين والقرارات التي تضمن ألا يعملوا. مسموح بالامتناع عن العمل للمسئولين فقط، هم فقط المسموح لهم بالإضراب المفتوح غير محدد المدة. وهنا تبدأ المساومة: والنبي تشتغلوا.. يا رب تشتغلوا.. حرام عليكم.. مصالحنا متعطلة.

- حاضر.. أهو.. حانشتغل أهو.. خلاص، والله حانشتغل.

* إمتى..؟

- يا جماعة اصبروا.. هو الواحد حايشتغل على طول كده؟ مش لازم ندرس في الأول ونعرف حانشتغل ازاي.. وفي أي اتجاه.. وبأي معايير؟.. مش لازم تكون فيه قاعدة تحكم الشغل.

* طب ما تشتغلوا زي التانيين.

- التانيين مين؟ الصين والا أمريكا؟.. والا إنجلترا..؟ والا السودان؟ والا ليبيا.. والا فرنسا؟ والا إيطاليا؟ والا هولندا..؟

* خلاص.. اشتغلوا زي أمريكا..

- هو احنا عندنا إمكانيات أمريكا؟

* زى الصين..

- ما ينفعش، التراث الصينى مختلف عن التراث بتاعنا.

* ممكن نشتغل زى إنجلترا أو فرنسا..؟

- لا طبعاً، إنجلترا بتتكلم إنجليزى، وفرنسا بتتكلم فرنساوى.. حانشتغل زيهم إزاى؟

* طب ما تشتغلوا زى الناس اللى نجحت..

- أمال إحنا بنعمل إيه.. هو ده بالضبط اللى إحنا بنعمله.. بس اصبروا شوية..

* حاضر.

ويستمر الإضراب!

***

فى كل إضراب يوجد شخص أو عدة أشخاص من الممكن أن نطلق عليه اسم «الشخص الإضرابى» هو شخص يكون فى أفضل حالاته النفسية والمعنوية عندما يتمكن من صنع الإضراب، هو الطالب الذى كان يدخل علينا الفصل بهدوء منذ أكثر من أربعين عاماً، وعندما يلتفت إليه المدرس متسائلاً عن سبب وجوده، يصرخ فجأة: اليوم حرام فيه العلم.. يحيا اتحاد الطلبة.

فنخرج على الفور من الفصول، كم كانت لذيذة ومنعشة تلك اللحظات التى نكتشف فيها أن العلم حرام فى هذا اليوم بالذات.

لقد اشتركت في صباي في إضرابات ومظاهرات كثيرة، ولكنني فشلت في أن أتذكر، ماذا كانت أهدافها وضد من كانت، ولكني أذكر فقط تلك النشوة التي كنت أشعر بها عندما كنا نخرج من الفصول لنتجمع في حوش المدرسة الكبير نستمع في سعادة لخطباء الإضراب، ونهتف في حماس بعد أن حصلنا على المبرر الشرعي للامتناع عن الدراسة. الفتوى واضحة وصريحة، اليوم حرام فيه العلم.. من منا يجرؤ على اقتراف الحرام؟

عبد الله ربيع، الباحث الاجتماعي السابق، والمسئول الكبير حالياً في نقابة الباحثين والأخصائيين الاجتماعيين، رجل إضرابي.

هو يهودي من أصل عراقي خرج إلى المعاش منذ عدة أعوام، هائل الحجم، لم يفلح الزمن في النيل من تقاطيعه الوسيمة ولا من روحه المرحة. ولعل السبب في ذلك هو أنه مازال يمارس عشقه الوحيد كرجل إضرابي. تنظيمه للإضرابات منذ أن كان شاباً في بغداد يحفظ عليه شبابه.

كان في انتظاري في فندق (خان الصحراء) ومعه شابان من الباحثين الاجتماعيين، ماجد وإسحق وهما من أصول بدوية..

حدثني عبدالله بحب وهيام عن الإضراب الذي يعد له وينظمه الآن، الباحثون الاجتماعيون يطلبون زيادة مرتباتهم. قبل الحكم العسكري في العراق كانت الحكومات الغبية المستبدة تسمح للناس هناك

بالإضرابات والمظاهرات بل وتسمح لهم بالهتافات المعارضة أيضاً. لم يذكر لى عبدالله اسم الفصيل السياسى الذى كان منضماً إليه، وأنا لم أسأله فلا أهمية لذلك، المهم أنه تنظيم كان يتيح له ممارسة هوايته كرجل إضرابى.

- استدعانى مسئول الخلية فى الحزب وقال لى: .. عبدالله .. أنت مسئول عن المصابين والجرحى فى مظاهرة الغد .. سنشتبك مع البوليس،سنستفزهم ليضربونا .. طبعاً ستحدث إصابات .. اجهز بالمطلوب ..

واشترى عبدالله كمية كبيرة من الشاش والقطن والميكركروم وصبغة اليود، وعندما انتهت المظاهرة، وتم تفريقها بعد الاشتباك مع البوليس استدعاه المسئول الحزبى وقال له ساخطاً: كويس كده يا عبدالله .. مفيش ولا إصابة.

فرد عليه: كنت عاوزنى أعمل إيه .. أعوّرهم لك بنفسى ؟!

ترى، ماذا كانت الهتافات التى كان يرددها عبدالله ؟ وما هى الشعارات التى كان يقضى الليل ساهراً يكتبها على قطع القماش.

فلسطين عربية .. تسقط الصهيونية.

وذات يوم، أو بمعنى أصح ذات مظاهرة، تنحنح وسلك حنجرته استعداداً للهتاف الشهير، تسقط الصهيونية، ففوجئ بهتاف آخر ينطلق من خلفه، وكأنه صيحة القدر: الموت لليهود.

هذه الصيحة في بغداد ليست دعاية، هي تعني معناها حرفياً.

في تلك اللحظة الكاشفة اكتشف عبد الله، أن عبد الله ربيع العربي العراقي البغدادي هو نفسه عبدالله ربيع اليهودي. ولئن كان الموت ليس مطلوباً لعبدالله العربي إلا أنه مطلوب لعبدالله اليهودي.. الكارثة أنهما نفس الشخص وعندما يموت أحدهما، لن يبقى الآخر حياً.. فسافر إلى إسرائيل.

***

ـ من المعروف عنك أنك ضد الصهيونية..

* كنت ضدها.. والآن أنا هنا..

ـ لماذا..؟

* جئت خوفاً من الموت..

ـ اسمك عبدالله.. أليس كذلك..؟

* نعم..

ـ حسناً.. اسمك الآن أوفاديا..

* لماذا.. اسمي هو عبدالله..

ـ عبدالله هو نفسه أوفاديا.. وربيع هو رابي.. اسمك الآن أوفاديا رابي..

هو الآن أوفاديا رابي، ولكنه استطاع أن يستبقي من اسمه القديم

اسمه الأول بين أصدقائه على الأقل، فأصبح عبد الله أوڤاديا، كان عبداً واحداً لله فأصبح اثنين في لغتين مختلفتين، حرموه من اسمه الذي تربى به وعليه ولكن حمداً لله.. لقد سمحوا له بممارسة هوايته الجميلة، الإضرابات والمظاهرات، من كان سيسمح له بذلك في الشرق الأوسط كله؟

***

تناولنا طعام العشاء في مطعم أرچنتيني، أين أنت يا دكتور ماركوس لتريهم كيف يشوي اللحم وتريهم أيضاً الكمية التي يجب أن يقدموها، كان معنا ماجد وإسحق، طلب مني عبدالله أن أنام مبكراً لأننا سنسافر إلى إيلات في السادسة صباحاً، سأطلب من الفندق أن يوقظوك في الخامسة والنصف صباحاً.. سنعود في نفس اليوم.

- هناك مشكلة يا عبدالله.. لا أستطيع فتح عيني في الصباح إلا بعد أن أتناول القهوة.. ومطاعم الفنادق عادة لا تفتح أبوابها قبل السابعة صباحاً.

وتم حل المشكلة على الفور، ترمس ممتلئ بالقهوة آخذه معي وأنا صاعد إلى غرفتي وفي الصباح أسلمه لمكتب الاستقبال.

الطريق من بير سبع إلى إيلات طويل، حوالي ٢٤٠ كيلو متراً تخترق صحراء النقب، تناولنا طعام الإفطار بعد ساعة في إحدى الكافتريات

على الطريق، بالرغم من ملامح العمران المتباعدة إلا أن صحراء النقب حريصة على أن تذكرك طوال الوقت بأنها صحراء.

على بعد ٣٠ كيلو متراً من إيلات قال السائق عدة كلمات بالعبرية لعبدالله، نظرت إليه متسائلاً فأجابني: يقول إن هنا منطقة سياحية.. وإن الملك سليمان كان يستخرج النحاس من هنا.. هل تريد أن تراها..؟

قالها عبدالله بلا حماس وكأنه يطلب مني أن نواصل السير، فصحت فيه: الملك سليمان يستخرج النحاس من هنا؟.. لا ياعبدالله.. المصريون القدماء هم الذين استخرجوا النحاس من هنا.. ضحك عبد الله طويلاً ولكني واصلت جاداً: ياعبدالله، كان المصريون القدماء يستخرجون الذهب والنحاس من جنوب سيناء.. انظر حولك ياعبدالله.. ملامح الجبال والتلال هنا هي نفس ملامح جنوب سيناء.. هي امتداد لها.. إنني أشعر أنني أسير في جنوب سيناء.. هيا نراها ياعبدالله.

عاد السائق إلى الوراء قليلاً ثم دخل إلى اليمين في ممر بين الجبال، كانت هناك بوابة في نهاية الممر وبجوارها كشك يقف فيه موظف، حصلنا على التذاكر ودخلنا بالسيارة، تبادل عبدالله حديثاً قصيراً مع الموظف ثم التفت إليّ: عرّفته أنك مصري فقال أنه يوجد فيلم عن المنطقة سيذاع باللغة العربية بعد ثلث ساعة.

في الساحة الكبيرة التي تتوسط الجبال، يوجد مبنى بسيط، مجرد غرفة كبيرة أشبه بالجراج، بها مدرجات حجرية وجهاز تليفزيون كبير.

كان هناك أتوبيسان سياحيان جاءا بمجموعة كبيرة من الطلبة من الجليل الأعلى، جلسنا على المدرجات الحجرية وبدأ عرض الفيلم عن المنطقة.. المكان اسمه جبل «تمناع»، بدأ المذيع الحديث والفيلم يستعرض ملامح المكان، صح ما توقعته، قال المذيع: وهنا استخرج المصريون القدماء خام النحاس.. ثم مشاهد لمعبد ورسومات مصرية، ثم لقطات تصف الطريقة التي كان المصريون يستخرجون بها النحاس من المناجم...

بعد مشاهدة الفيلم واصلنا الطريق بالسيارة إلى إيلات، لم يكن لدينا وقت لزيارة آثار المنطقة فاكتفينا بمشاهدة الفيلم ثم واصلنا طريقنا. انطلقت أتكلم جاداً بينما عبدالله يضحك في صخب.. ياعبدالله، لا داعي للحديث عن الحقوق التاريخية.. فهأنت ذا ترى.. كنا نحن المصريين هنا من آلاف السنين.. لا داعي لأن يقول أحدنا للآخر كنا هنا من آلاف السنين، فهذه مقولة لا توصل لشيء، يجب أن نقول: أنا هنا الآن، وأنت هنا الآن، وعلينا أن نبحث عن الطريقة التي نعيش بها معاً في سلام.. هنا والآن يا عبدالله.. هنا والآن. أنا لا أصدق كل ما قاله التاريخ، وخاصة عندما يدعوني لذبحك.. أو يدفعك لقتلي..

أنا أصدق منه فقط الأجزاء التي تدفعني للعيش معك في سلام.. كم لحظة يتكون منها التاريخ ياعبدالله؟ مليارات المليارات، أليس كذلك؟ لماذا نختار منها اللحظات التي تحتم على كل منا أن يقضي على الآخر؟ لماذا لا نختار لحظة أخرى يتحقق فيها وبها السلام؟

لماذا لا نقتنص تلك اللحظة التى أجلس معك فيها الآن فى السيارة، هى لحظة تاريخية هى الأخرى، لسبب بسيط، أن كل لحظات التاريخ تاريخية.. أو اسمح لى أن أبحث عن تعريف آخر للحظة التاريخية.. أنا أعتقد أنها اللحظة التى يكتشف فيها التاريخ أنه كان مخطئاً. حسناً.. تعال الآن نفكر بشكل مختلف فيما يتعلق بجبل تمناع، لنفرض أننا أمسكنا بلحظة بعيدة جداً راقدة فى جوف التاريخ، أمسكنا اللحظة التى كنا نعيش فيها هنا.. ثم مددنا منها خطاً مستقيماً إلى الحاضر، ماذا ستكون النتيجة؟

النتيجة هى، منطقة جبل «تمناع» من حق المصريين، حقنا واضح فيها، هذا الفيلم الذى شاهدناه لم نصنعه نحن.. هو اعتراف صريح منكم بحقنا التاريخى فى هذا المكان.. وهنا سنطالب بأن تمتد الحدود المصرية ٣٠ كيلو متراً شمال إيلات. المعبد المصرى هنا لم يندثر أو يهدم، هو موجود، وهذه هى الرسومات، لن يتطلب الأمر أكثر من رسالة من صفحة واحدة لمجلس الأمن نرفق بها نسخة من الفيلم، ونطلب من العالم كله أن يجيب عن هذا السؤال: هل كان المصريون هنا أم لا..؟ سيجيبون، نعم، كانوا هنا... خلاص يبقى جبل تمناع بتاعنا.

ماذا ستقولون للناس فى العالم؟ هل ستقولون لهم إن الشعب المصرى الحالى ليس هو الشعب المصرى القديم؟ وإن الفراعنة القدماء جاءوا من كوكب بعيد ثم رحلوا..؟ لن يصدقكم أحد.. لا تفزع ياعبدالله، صدقنى لن نطالبكم بجبل تمناع بالرغم من أن اسمه جميل ويصلح

للاستخدام في الأناشيد والأغاني والهتافات.. أعدك يا عبدالله أننا لن نفعل ذلك... القضية هي هنا والآن.. نعم، ماذا نفعل للعيش في حرية وسلام، هنا والآن؟ ماذا نفعل لنزرع هذه الصحراء عندنا وعندكم؟

ولكن دعني يا عبدالله أحدثك في موضوع محبب إلى قلبك.. افرض أننا سيّرنا عندنا مظاهرة كبيرة نشعل بها حماس الجماهير ونضعهم في حالة عقلية تؤهلهم لاسترداد جبل تمناع.. ماذا ستكون الشعارات والأغاني والخطب.. ما رأيك في هذه الأغنية.. حبيبي ساب البتاع وراح يحارب في جبل تمناع.. اتركوا كل البقاع واستعيدوا جبل تمناع.. لابد من سقوط القناع واستعادة جبل تمناع..

لا يا عبدالله، ليست ساخنة بما فيه الكفاية لتلهب حماس الجماهير، طب اسمع، ذيعوا ذيعوا في المذياع، حا نسترد جبل تمناع. تريد شيئاً أسخن؟ ابكي ابكي يا ملتاع، ما راح علينا جبل تمناع.. اللي اشترى واللي باع، روحوا هاتوا لنا جبل تمناع..

ما رأيك في كلمة جاع يا عبدالله؟ هي مؤثرة جداً في المظاهرات ولكنها صعبة الاستخدام... ما رأيك في أن يكون الهتاف.. الشعب جاع جاع، وحياكل جبل تمناع؟ لابد أيضاً من بعض الشعارات العبثية.. غير المفهومة.. الناس تحب هذا النوع جداً.. مثل، لمّع لمّع يالمّاع.. وشمّع شمّع يا شمّاع.. وبيع بيع يابيّاع.. الخ.

كان عبدالله يضحك باستمتاع وقد لمعت عيناه في طفولة وكأنه تخيل نفسه يقود هذه المظاهرة.

هنا والآن يا عبدالله... ماذا نفعل هنا والآن؟

***

لم أحب إيلات، فلست أحب المدن التي تقام خصيصاً للسياحة، بُناتها يحرصون على أن تكون جميلة ولامعة في كل أجزائها وجزئياتها وليس هذا هو طابع الحياة. ذهب بنا السائق إلى طابا وهي على بعد عدة دقائق من إيلات، طلب مني عبدالله أن نعبر الحدود إلى مصر، رفضت، معي تأشيرة دخول إلى إسرائيل لمرة واحدة، ماذا يحدث إذا لم يسمحوا لي بالدخول مرة أخرى بينما سيارتي في تل أبيب؟!

عدنا إلى بير سبع.. توقفنا عدة مرات لتناول القهوة على الطريق، في أحد المطاعم وكان مبنياً من البامبو والأخشاب وجذوع الأشجار. قال عبدالله: أنا أعرف صاحب هذا المطعم، كان من جنود المظلات.. قام بعدة عمليات في الحرب اعتبروه بعدها بطلاً.. ذات ليلة عبر الحدود إلى الأردن بلا أوامر وقتل بعض الجنود هناك ففصلوه من الجيش.

هذه هي الكارثة، القتل أحياناً يصنع من بعض الناس أبطالاً فيفزعهم السلام، هو يعني ببساطة أن يخلعوا رداء البطولة ويتحولوا لبشر عاديين.

لفت نظري ديك بلدي عادي كان يتجول في المكان، كان كبير الحجم بشكل لا يصدق، ماذا فعلوا بهذا الديك حتى أوصلوه لهذا الحجم؟ هل هي الهرمونات؟.. ولماذا؟

أخذت أتأمل الريش الكثيف الذى يغطى عينيه وساقيه ويزحف على أظافره، هو بالتأكيد لا يصلح للأكل بعد أن أصبح لحمه مثل الخشب. لا داعى للبحث عن أسباب بعيدة، هذا الديك أصبح بهذا الحجم لأن أحداً لم يذبحه.

***

عدنا إلى الفندق فى بير سبع بعد الغروب بساعة تقريباً، قال عبدالله: أنت تعرف أننى مشغول جداً فى الإعداد للإضراب.. سأذهب الآن لأنام على الفور.. فى الخامسة صباحاً سيأخذنى السائق إلى تل أبيب.. عندى موعد على الإفطار فى السابعة صباحاً مع مسئولة كبيرة بخصوص الإضراب.. ثم يعود السائق إلى بير سبع لينام.. ثم يأتى إليك فى الساعة الثانية بعد الظهر.. فيأخذك لتل أبيب ثم يأتى فى الرابعة ليأخذنى إلى القدس فلدى مهمة هناك.. غداً صباحاً فى العاشرة سيجىء ماجد وإسحق إليك ويقومان بجولة معك فى بير سبع، ثم تعود بالسلامة إلى تل أبيب. هات زوجتك معك المرة القادمة.. سترحب بكما زوجتى كثيراً..

***

* هو مركز لإعادة تأهيل المصابين فى الحرب.

لا يا ماجد.. آسف يا إسحق، لن أزور هذا المكان، لست فى حاجة

لأن أرى ما تفعله الحرب بالبشر فأنا أعرفه جيداً، وأكره هذه العادة القبيحة التي تجسد نفاق البشر، عادة زيارة ضحايا الحرب وكأنهم موقع سياحي، وأرتعد عندما أشاهد في التليفزيون شخصية مرموقة وهي تزور ضحايا الحرب حاملة لهم الورود والهدايا وتبتسم لهم وللكاميرات في بلاهة وقسوة. ماذا أستطيع أن أقدمه لهم أو أفعله من أجلهم سوى الفرجة عليهم؟.. لا شيء.

لقد شاهدت في بلدي ما يكفيني، فأنا أسكن بالقرب من أحد مراكز التأهيل، وقرأت ما يكفيني أيضاً عن الأبطال الذين ينساهم الناس بعد أن تنتهي أجواء الحرب، قولا لي بصراحة: ما هو التعويض أو المقابل الذي يستطيع كل سكان الأرض أن يقدموه لشاب أفقدته قذيفة نور عينيه أو أقعدته عن الحركة؟

والله لو أن لدي ما أقدمه لهم عندنا وعندكم لذهبت إليهم وقدمته على الفور. يا صديقاي، أشكر لكما اهتمامكما بي وكرمكما.. وأرجو أن تبلغا عبدالله أوقاديا شكري العميق، والآن يا صديقاي، أطلب منكما أن تعودا بي إلى الفندق، الساعة تقترب من الثانية وهو موعدي مع السيارة التي ستعيدني إلى تل أبيب.

***

- راخيل.. حمداً لله، غبت ليلتين وعدت لأجد حقائبي في مكانها وسيارتي في مكانها ووجدتك في مكانك خلف «بنش» الاستقبال، أما

الأمر المدهش حقاً فهو أن أجدك ما زلت جميلة، لم يغير الزمن فيك شيئاً.

* أي زمن..؟ لقد تركتنا من ليلتين فقط.

- نعم ياراخيل... أحياناً يفعل الزمن في البشر الكثير في ليلتين فقط.. هل هناك رسائل لي؟

* نعم السيد فاروق غنيم من السفارة المصرية يطلب منك التأكيد على أنك ستحضر حفل العشاء في منزله مساء الجمعة.

- حسناً يا راخيل.. إقامتي هنا على حساب الجامعة تنتهي صباح الجمعة..

* نعم..

- ولكني سأغادر صباح السبت لأتمكن من تلبية هذه الدعوة.. هذه الليلة الزيادة ستكون على حسابي.. هل تتفضلين - أيتها الجميلة - بإجراء التخفيض اللازم لي؟

الفنادق في إسرائيل تعفيك من دفع الضريبة وهي ١٧٪ عندما تدفع بالدولار، ولكني أطمع في الأكثر من ذلك بالطبع. جلست راخيل إلى الكومبيوتر وأخذت تعمل، ظلت وقتاً طويلاً تعمل في إجراء الحساب حتى خيل إلى أنها تعصر الكومبيوتر عصراً، وأخيراً قالت: ٥٦ دولاراً.

- ياه.. هل هذا هو كل مايمكن عمله؟

* نعم.. نحن نحاسب الجامعة على ٨٥ دولارا..

- أشكرك يا راخيل، وعلى فكرة.. أنت أول إنسانة خمس نجوم تعمل في فندق ثلاث نجوم.

***

ضم حفل العشاء في منزل فاروق مجموعة كبيرة من الخارجية الإسرائيلية بالإضافة لعدة شخصيات أكاديمية من حركة السلام الآن وجراح كبير كان أسيراً في حرب ١٩٧٣ وقام بإجراء عمليات جراحية لعدد من الجنود المصريين.

فاروق وزوجته مضيفان ممتازان، السهرة كان يسودها الدفء والود، سألني أحد المدعوين: هل تستطيع أن تلخص لنا في جملة واحدة كيف عوملت هنا؟

- احترمني الأشكنازي، وأحبني السفارديم.

* أوضح..

- اليهود من أصول غربية عاملوني باحترام وتهذيب، أما اليهود من أصول شرقية فقد عاملوني بحب وفرحة.. وعلى فكرة، كان يجب أن آتي إلى هنا لأكتشف خطأ هذه التسمية، هم يهود عرب، وهذا يرتب علينا كمصريين أعباء جديدة.

* كيف..؟

- انتظر كتابى ..

انصرف المدعوون وجلست أنا وفاروق نتحدث، فتح التليفزيون، كانت اللقطة لمذيع يتكلم مع شخص يرتدى ملابس رسمية، من الواضح أنه شخص مهم في الشرطة، كان يرد على الأسئلة بصوت خافت ويتحاشى النظر إلى الكاميرا .. لاحظت أن فاروق يبتسم.

- من هو؟

* هو قوميسير البوليس .. يعنى رئيس البوليس ..

- ماذا يقول؟

* لم أرتكب خطأ ما .. لم أخرج عن القانون أو العرف .. لقد سلكت سلوك أى مواطن عادى .. لا صلة لمنصبى بذلك ..

- ما هى حكايته؟

* لقد حصل على تخفيض أربعين فى المائة فى أحد الفنادق فأُرغم على الاستقالة .. من حق أى مواطن أن يحصل على نفس التخفيض أو أكثر فى أى فندق على سبيل المجاملة .. ولكن لماذا يحصل عليه رئيس البوليس؟ ماذا سيدفع مقابل هذه المجاملة، طاردته الصحافة بعد أن نشر الفندق صورة له وسط بعض النزلاء فى حمام السباحة .. فاعتبرت الصحافة ذلك إعلاناً .. معنى ذلك أنه حصل على التخفيض مقابل هذا الإعلان.

ـ هل أنت متأكد أنه حصل على تخفيض فقط ولم يحصل على الفندق نفسه؟

* نعم.

ـ يا للوغد الشرير.. يحصل على تخفيض ٤٠٪ في الفندق ثم يكتفون بإرغامه على الاستقالة فقط؟.. الحمد لله، لقد حصلت من راخيل على نفس النسبة تقريباً، ولكن أحداً لن يرغمني على الاستقالة، ولا حتى على العمل.

***

الدولة القديمة لا تهتز من الفساد، فأعمدتها القوية الراسخة التي تكونت على مدى آلاف السنين قادرة على حمل بناء الدولة مهما كان حجم السوس الذي ينخر في تلك الأعمدة، وهي قادرة بآليات القِدَم وما يحويه من قوة عندما تتعرض لخطر داهم أن تنفض عن نفسها الفساد.

في كل دولة يوجد هامش للفساد الإداري والسياسي، يتسع أو يضيق ولكنه موجود. لكن يبدو أن الناس هنا لا يرفضون الفساد فقط بل يشعرون حياله بالرعب على الأرجح لأسباب عملية وليست أخلاقية. فالبشر هم البشر في كل مكان، وليس لدي ما يدعوني للاعتقاد بأنهم يتمسكون بالأخلاق أكثر من غيرهم.

المسألة ببساطة أنهم على وعي بأن السماح بالفساد في دائرة الدولة والسياسة مهما كان حجمه كفيل بنهاية الدولة. لأنها ما زالت في مراحل

التكوين الأولى، بل أغامر فأقول: هى ما زالت فى دور حضانة التاريخ، لذلك يعامل رجال الدولة بصرامة، ويدفعون الثمن غالياً أكثر من أى مواطن آخر عند أول خطأ يتم الكشف عنه.

حتى الآن، ومن خلال ما مضى من أيام قليلة فى زيارتى السريعة، ومن زاوية معينة، يمكن اعتبار إسرائيل شركة مساهمة متعددة الجنسيات بها إدارة حسابات منضبطة، هذه الإدارة تحرص على إنفاق الميزانية فى بنودها المحددة، كما تحرص فى نهاية العام على توزيع الأرباح بانضباط صارم على المساهمين. لا يوجد مساهم أتخن من مساهم آخر.

هناك بالطبع إدارة أخرى فى غاية الأهمية، هى إدارة الحصول على فلوس من أى مكان وكل مكان، ولكنها هى أيضاً تابعة لإدارة الحسابات، كل الأقسام والهيئات والإدارات تخضع لإشراف إدارة الحسابات التى تمثل أعلى مكان فى مبنى إسرائيل، فوقها السماء مباشرة، لا أحد فوقها، لا أحد فوق الحساب.

- تريد أن تعمل فى الدولة؟.. فى السياسة؟ تريد أن تمارس العمل العام؟.. أهلاً وسهلاً.. تفضل.. فقط المطلوب من حضرتك الموافقة على أن يسلط عليك وعلى عملك ألف بروچكتر كشاف، أكبرها واحد اسمه الصحافة، نحن الصحافة نتكلم معك الآن.. أجبنا.. ما هو اسمك وعملك؟

* اسمى إسحق رابين.. وأعمل رئيساً لحزب العمل ورئيساً للوزراء.

ـ أنت خالفت القانون يا سيد رابين.. زوجتك عندها حساب فى بنك غير إسرائيلى.

* لم أخالف القانون.. هذا موضوع قديم جداً.. كنت سفيراً فى أمريكا.. فكان لابد طبقاً للقانون أن نفتح حساباً فى بنك أمريكي.

ـ ولماذا لم تغلق حسابك بعد أن انتهت إقامتك هناك؟

* كان مبلغاً بسيطاً.. حوالى ١٥٠٠ دولار ونسيناه..

ـ لأ يا حبيبى.. بدليل أنه فى إحدى السفريات إلى أمريكا.. ذهبت زوجتك إلى البنك وسحبت منه مبلغاً..

* ولكن المبلغ..

ـ لا تقل كان ضئيلاً جداً.. نصف دولار.. دولار واحد.. مليون دولار.. المهم أنك خالفت القانون.. ونحن لن نطلب تحويلك للتحقيق لأن القضية هايفة، ودفاعك فيها سيكون مقنعاً للمحقق.. ستقول أنه من الممكن اعتبار الحساب مغلقاً نظراً لضآلة المبلغ المتروك فيه، وأنك لم تضف إليه بعد ذلك دولاراً واحداً.. لذلك سنتكلم مع الرأى العام.. يا حضرة الرأى العام، هذا الرجل الذى يعمل رئيساً لحزب العمل ورئيساً للوزراء.. خالف القانون.. اتفضل اتصرف معه.

ونهض غول الرأى العام مزمجراً ونظر لرابين بعين حمراء يتطاير منها الشرر فتنازل عن رئاسته للحزب لبيريز وفى أول انتخابات ضاع حزب العمل وجاء المتطرفون بقيادة بيجن لتدفع إسرائيل ونحن أيضاً الثمن غالياً.

الأغنيـــة والمغنـــى

الأغنيـة عـبـرية، ولكن اللحن قـريب مني، فـهل سـمـعـتـهـا من قـبل.. وأين؟

كنت أركب تـاكسياً ومـعي هلال كابريل وهو صـحـفي يعمل لجريدة أمريكية، لا داعـي لعمل اللقاء في الفندق، لنذهب يا هلال لمنطقة قريبة من البـحـر، في الطريق إلى الشاطـئ كان السـائق يدير هذه الأغنيـة في

جهاز كاسيت السيارة . هي حزينة وجميلة يغنيها مطرب شاب، فيها مقطع يتكرر بشكل فيه أسى وعذوبة .

هل أسأل السائق عن اسم المغني واسم الأغنية ؟ لا داعي فأنا أحفظ الآن المقطع الذي يتكرر، أنا أغنيه الآن في ذهني، سأذهب إلى محل شرائط كاسيت وأغني هذا المقطع للبائع، نزلنا من التاكسي، تمشينا قليلاً وأنا أهمهم بموسيقى المقطع، عبرنا الشارع وجلسنا في مقهى، اختفى اللحن من ذهني، أفلت من ذاكرتي، ليتني سألت السائق، وفجأة عاد اللحن مرة أخرى، ولكن في هيئة أخرى، جاء يرتدي ثيابا مختلفة، نعم .. أنا أعرف هذه الأغنية، هي أغنية «اشتقنالك» للمطرب اللبناني راغب علامة، نعم هي بالتأكيد، هو نفس اللحن، بتوزيع جديد جميل ..

كنت أعرف من قبل أن هناك ألحاناً مصرية تُغني عليها أغان عبرية، ولكن أن تسمع عن شيء، أمر مختلف تماماً عن أن تعيشه، كنت أتكلم مع هلال بينما ذهني منشغل تماماً في موضوع الغزو الثقافي الإسرائيلي لمصر، وهي القضية المثارة حالياً بين المثقفين .. من يغزو من ؟ .. وكيف ؟ وبأي سلاح ؟ .. وما معنى كلمة غزو ؟ هل سيكون هناك قتلى وجرحى وأسرى ثم اتفاقيات وقف إطلاق نار في هذا الغزو الثقافي ؟

الواقع أن صيحات التحذير في السنوات القليلة السابقة كانت تحذر بوجه عام من الغزو الثقافي القادم من الغرب، والآن تكتفي صيحات

التحذير بالتنبيه إلى الغزو الثقافي الإسرائيلي الذي سيحدث حتماً في هذه المرحلة التي «تهرول» فيها المنطقة العربية في اتجاه السلام..

إن استخدام التشبيهات والرموز في الحديث عن الواقع، كفيل بإخفاء ملامح الواقع نفسه، وتحويله إلى صورة في الذهن لا أصل لها في الواقع.. وهكذا يتم تزوير صورة الحياة ويتم التعامل مع هذه الصورة المفبركة بوصفها الحياة نفسها، وعندما تكون الصورة مليئة بالغيلان فلابد من ضياع العمر لإقامة الحصون والقلاع للدفاع عن أنفسنا ضد هذه الغيلان.

ـ الآن وقد فشلت إسرائيل في غزونا عسكرياً، استعدوا لمواجهة الغزو الثقافي..

* ماذا ستكون خطة الغزو؟

ـ في الغالب سترسل إسرائيل الأشعار العبرية فوق سماء العواصم العربية وتصلينا منها حمما.. أما روايات الكتاب العبريين فسوف تزود بمحركات صاروخية تجعلها قادرة على النفاذ إلى عقلك وقلبك ووجدانك وتطرد منها أعمال نجيب محفوظ وطه حسين وأحمد بهاء الدين بل والمتنبي والجاحظ وشكاوى الفلاح الفصيح.. أما الأغاني والألحان العبرية فسوف يقودها أرئيل شارون بنفسه في حركة كماشة خاطفة يحاصر بها قلبك ويدمر ألحان السنباطي والقصبجي وعبدالوهاب وبليغ حمدى.. أما تاريخك الطويل فسوف ترسل إسرائيل تاريخها القصير

بعد أن تزوده بأستيكة نووية قادرة على مسح تاريخك الممتلئ بالإبداع والحكمة..

* يا لي من ضحية مسكينة لا حول لها ولا قوة.. وكيف أحمي نفسي من هذا الغزو؟.. ماذا أفعل في مواجهة هذه الأسلحة الفتاكة؟

- لا تتكلم معهم، لا تستمع لهم، لا تقرأ لهم، أقنع نفسك بأنهم غير موجودين على وجه الأرض.. إسرائيل في تصورهم هي نفس «النداهة» في الحواديت الشعبية، وهي نفسها السيرينات في الأساطير الأغريقية، وكما جاءت أيضاً في ألف ليلة وليلة.. هي المغنية الأخاذة، صاحبة الصوت الساحر الجذاب، ستسحرك بغنائها وتسحبك إلى قاع النيل، صم أذنيك عن سماعها، تحول إلى أطرش، أغمض عينيك أيضاً فقد تغزوك بفيلم ذري أو شيء من هذا القبيل..

* حسناً سأسد أذني، وأغمض عيني لأحمي نفسي من الغزو الثقافي..

- هذا لا يكفي يا عزيزي.. فقد يغزون عقلك بسلاح جديد متطور، له القدرة على النفاذ إلى عقلك دون أن يمر على أذنيك وعينيك..

* يا لي من يتيم ضائع... ماذا أفعل - إذن - لحماية عقلي؟

- اقفله.. اقفل عقلك.. هذا هو الحل.

* حاضر قفلته..

ـ أنت الآن مسدود الأذنين، مغلق العينين، مقفول العقل، ولكن من المؤكد أنك نجوت من الغزو الثقافي الإسرائيلي، أنت الآن ـ حمداً لله ـ آمن على تراثك وثقافتك الوطنية والقومية..

***

قبل سفرى إلى إسرائيل بعدة أسابيع جاء إلى ندوة نجيب محفوظ الدكتور جلال أمين أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وهو مفكر متحضر من النوع الذى تستطيع أن تختلف معه دون أن يفكر فى ذبحك أو يطلب من الله سراً أن تموت، تكلم طويلاً عن أخطار الغزو الثقافى الإسرائيلي الوشيك الذى يهدد التراث المصرى والثقافة المصرية، فأنصت إليه نجيب محفوظ إلى أن انتهى من كلامه وسأله: هل أنت ترى فعلاً أن إسرائيل قادرة على أن تفعل بنا ذلك؟

ـ نعم، ولقد جئت لأسألك.. ماذا نفعل؟

* موتوا... إذا كانت إسرائيل قادرة على تدمير وإفناء التراث الفنى والأدبى والثقافى المصرى والعربى فمن الأفضل لنا جميعاً أن نموت.

يبدو أن نجيب محفوظ اكتشف أن الرد كان قاسياً فواصل برقته المشهورة: يا عزيزى.. المسألة باختصار أنك الآن حر فى اتخاذ القرار، بعد أعوام طويلة كان فيها من يحمل عنك مسئولية اتخاذ القرار.. المثقف فى مصر كان يعمل فى حماية مظلة من الأفكار الجاهزة بنتها

له السلطة لحمايته من شمس الحرية المحرقة، هذا هو ما يخيفك.. هذا هو ما يخيفنا الآن، أننا أحرار في اتخاذ القرار.

بعد ذلك تكلمت مع الدكتور جلال عن كتاب بيريز «الشرق الأوسط الجديد» وطلبت منه أن يقرأه فظهرت عليه علامات الضيق أو لعله الحذر من الغزو الثقافي، غير أنه كأستاذ جامعي له موقف سياسي وهو الأمر الذي يحتم عليه قراءة كتاب عدوه، طمأنني بأنه سيقرأه، وكان لابد لي في نهاية حديثي معه أن أفجر قنبلة من العيار الثقيل: اقرأه.. لسبب خاص جداً، هو يستشهد بأبحاث لأخيك الدكتور حسين..

فصاح مفزوعاً: أخي؟ الدكتور حسين؟

- نعم.. ومن بين مراجعه أيضاً أبحاث للدكتور العريان، والدكتور سعيد النجار وأشعار لنزار قباني..

***

الناس في إسرائيل تشاهد الفيلم المصري في التليفزيون بانتظام في تمام الخامسة والنصف كل يوم جمعة، والترجمة على الشريط باللغة العبرية، ويشاهدون المسلسلات مترجمة أيضاً. وعلى حد علمي لم نسمع عن شخص واحد يحذر من الغزو الثقافي المصري، كما لم نسمع عن ضحايا لهذا الغزو.

ومسئول التليفزيون الذي يذيع هذه الأفلام والمسلسلات ليس عميلاً

للأجهزة المصرية تسلل إلى خطوط العدو من أجل فرض ثقافتنا الدرامية عليهم، بل هو مسئول يعرف زبائنه جيداً ويعرف ما يحبونه وما يجب أن يقدمه إليهم من زاد مسل وممتع.

قالت لى دينا وهى يهودية من أصول عراقية وتعمل مصورة فوتوغرافية: أنا أحب الأفلام المصرية.. لها منطق خاص جداً فى تناول مشاكل البشر، هى مريحة للعقل جداً.. ومع ذلك، لقد زرت مصر كثيراً، وأستطيع أن أقول.. أنتم أفضل كثيراً من أفلامكم.

بالقرب من الحدود المصرية، وفى منطقة صحراوية توقفت عند عودتى فى محطة بنزين كان بها شابان، فشلت فى التفاهم معهما بالعربية أو بالإنجليزية، قلت لهما: أنا مصرى..

فصاح واحد منهما بترحيب مهللاً: مصرايم؟!

وبدأ عقله يعمل بسرعة باحثاً عن كلمة أو كلمات عربية يعرفها ليقيم بها جسراً من التواصل بينه وبينى، ثم صاح فجأة: مخمود ياسين.

نطق الاسم بالخاء، ووصلتنى رسالته، أنا أشاهد الأفلام المصرية وأعرف أبطالها.

***

الحديث عن الغزو الثقافى الإسرائيلى لمصر حديث خرافة، وكلام مهين للثقافة وللمثقفين المصريين. هو تحذير من غول وهمى وشعار

غبي يعلن عن انعدام الثقة بالنفس والجهل بمكونات الثقافة المصرية والإسرائيلية. هو شعار مرفوع لأسباب أيديولوجية تستبعد من اعتبارها مصلحة المصريين ولا صلة لها بالثقافة والمثقفين، غير أنه يخلق جواً من الابتزاز والغوغائية في الحركة الثقافية ويشيع فزعاً لامبرر له بين أجيال من الشباب ما زالت تبحث عن الحقيقة وعن نفسها في بداية طريق الأدب والفن ويسلمها للتعاسة واليأس فينعكس ذلك على إنتاجها ويجرده من القوة والإبداع اللذين هما ثمرة للإدراك الصحيح للواقع.

وبذلك يتحول الشعار إلى علم أبيض يرفعه هؤلاء الذين قرروا التسليم قبل معركة السلام لعجزهم عن خوضها مواصلين العمل بالقاموس القديم.. الهزيمة هي النصر، والنصر هو الهزيمة. الجبن هو الشجاعة، والعجز هو القوة.

***

قد يفقد المصريون الكثير، وقد يحرمون من الكثير ولكن سيبقى لهم إلى الأبد «القيادة الروحية والثقافية» في المنطقة على حد قول إسحق بارموشيه في كتابه، «مصر في قلبي» لسبب بسيط، لا أحد على وجه الأرض قادر على حرمان مصر من الاحتفاظ «بصوت المكان» وإعادة تصديره.

لكل مكان على وجه الأرض أصواته، نغماته الخاصة به، لحنه الخاص، حتى ملامحه الطبيعية هي أيضاً أصوات وإيقاعات، ومن ذلك

جميعاً تتشكل ثقافته وهويته، هنا أيضاً أجناس عديدة من البشر جاءوا من أماكن متباعدة وبداخلهم ألحانهم الخاصة، بداخلهم نغمات الأرض التي ولدوا وتربوا عليها، حتى وقائع التاريخ والزمن، لها أيضاً أصواتها ونغماتها. هؤلاء لن يستمتعوا بصوت أم كلثوم، لن يعجبوا بالمسلسل المصرى وبالممثلين المصريين، لو قدمت لهم كنزاً من أغانى ناظم الغزالى وعبد الوهاب وفريد الأطرش سيعتذرون عن عدم قبوله شاكرين، ولكن.. هناك فى إسرائيل عرب ومسلمون ومسيحيون. وهناك أيضاً اليهود الشرقيون، واسمح لى أن أسميهم اليهود العرب، بل سأغامر بالقفز وسط حقل الألغام وأقول لك، العرب اليهود. نعم، هم عرب يهود مثلما أنا عربى مسلم وإيميل حبيبى عربى مسيحى وساسون سوميخ عربى يهودى، هم يحملون فى جيوبهم هويات وجوازات سفر إسرائيلية ويحملون فى قلوبهم أحاسيس عربية صنعتها أصوات المكان..

جوازات السفر تشير للهوية ولا تصنعها، هى اختراع يقدم لرجال الجوازات في المطارات والموانئ، وبطاقة الهوية أيضاً أنت فى حاجة إليها فقط عندما تقدمها لموظف البنك المسئول لتصرف شيكاً أو تقدمها لرجل الشرطة عندما يشتبه فى أنك شخص آخر وقد لا يعترف بها. الهوية أبعد من ذلك بكثير، هى آلاف الطبقات المرصوصة فوق بعضها البعض داخل الإنسان صنعتها أصوات المكان والزمان.. فى قرية «خرفيش» التى يسكنها الدروز شمال حيفا، وفى ندوة ثقافية قال سامى ميخائيل: عندما أذهب إلى القاهرة، أقبلها فكأنى قبلت بغداد.. وقال

سميح القاسم: لقد لعبوا كثيراً على نغمة أن الدروز ليسوا عرباً... من نحن إذن؟.. فرنساويين؟

وقال لي يعقوب سيتي الملحق الإعلامي في مصر: لو أن صدام حسين سمح لليهود بزيارة العراق لذهب أبي إلى بغداد مشياً على الأقدام.

* وماذا عن الدين؟

- الدين مكون أساسي من مكونات الهوية ولكنه هو نفسه بحد ذاته ليس كل الهوية، نحن جميعاً ننتمي لهذا المكان، ونحفظ في أعمق أعماقنا كل أصوات هذا الجزء من العالم... لست في حاجة للبحث في القواميس لأعرف معنى كلمة.. «سفارديم».. وهي اليهودي الشرقي، قد يكون هو اليهودي من إيران، أو من بخارى، أما أنا فمرجعي أمامي الآن، نابض بالحياة، مرجعي هو البشر كما أراهم.

بدأت أتنبه لذلك منذ تلك اللحظة التي شاهدت فيها المسئولة عن الكافتريا في التليفزيون والفرحة التي عاملتني بها، ثم الشباب اليهودي من أصول مغربية الذين يعملون في مطعم الفندق والحب الذي عاملوني به، ثم كل العرب اليهود الذين قابلتهم، هل تذكر الصعيدي القديم الذي كان على استعداد لأن يموت من أجل شخص كل ما يربطه به هو أنه «بلدياته».. أنا بلدياتهم..

* ولكن اليهود الشرقيين الذين تسميهم عرباً، كانوا الأكثر قسوة مع

جنودنا الأسرى على الجبهة .. وهم عادة يعطون أصواتهم في الانتخابات للأحزاب الدينية المتشددة .. بالرغم من أنهم عرب كما تقول.

- نعم، أوافق على ذلك بقوة، ولكن هناك خطأ بسيط .. لا تقل بالرغم من أنهم عرب، بل قل لأنهم عرب ..

بل إن الدليل الوحيد على أنهم عرب حتى النخاع هو نفسه ما ذكرت .. هل ترى على الأرض من هو أكثر قسوة من العربى على العربى؟ لا داعى للخجل من حقائق الواقع .. ما رأيك فى الطريقة التى عامل بها العرب العراقيون العرب الكويتيين؟ وما رأيك فى الطريقة التى يعامل بها العرب اليمنيون العرب اليمنيين؟

* الحرب هى الحرب، الناس فى الحرب يتحولون إلى وحوش ..

- قد أوافق على ما تقول، ما رأيك فى الطريقة التى يعامل بها المصريون فى المنطقة العربية من بقية العرب ونحن كما تعلم فى حالة سلام مع الجميع؟

* إذا كانوا عرباً أساساً كما تزعم، لماذا يعطون أصواتهم للأحزاب الدينية المتعصبة ضد العرب؟

- لسبب بسيط وواضح، هم يريدون مضايقة بل ومحاربة الحكومات العربية، هم يكرهونها تماماً كما يكرهها عرب المنطقة العربية، وهم فى

ذلك لا يختلفون عنى وعنك فى شيء، أجبنى بصراحة.. لنفرض أنه قد سنحت لك الفرصة لمضايقة الحكومات العربية علناً دون أن يعاقبك أحد.. ألن تستغلها؟ صدقنى كراهيتهم للحكومات العربية دليل قوى بل أقوى الأدلة على أنهم عرب، والآن وبعد أن عرفنا أنهم عرب مثلنا أليس من الواجب أن نصلى جميعاً مسلمين ومسيحيين ويهودا ونبتهل إلى الله ألا يصل واحد منهم إلى الحكم فى إسرائيل.

- لماذا؟

* أليس من الجائز أن يكون مؤمناً بالعروبة إلى الدرجة التى يعلن فيها أن دولة إسرائيل عربية ثم يطلب الوحدة معنا.. الباقى أنت تعرفه طبعاً.

- يا نهار أسود.. ماذا نفعل فى هذه الحالة؟

* ماذا؟.. هل أنت ضد الوحدة يا رجل؟ عموماً لا تخف، هذا فرض مستحيل، لنعد إلى موضوعنا.. والآن وبعد أن عرفنا هويتهم، أليس من المحتم أن نعيد التفكير فى الطريقة التى نتناول بها قضية السلام العربى الإسرائيلى، إن الزاد الروحى والثقافى والفنى مستورد حتماً من المخازن المصرية لصالح قطاعات عريضة من البشر هناك. نحن نصدر لهم أصوات المكان، لأننا نحن المكان نفسه، هناك دور فى إسرائيل وفى فلسطين ينتظر مصر الآن، وكل لحظة تأخير فى القيام بهذا الدور يترتب عليها عثرات وانتكاسات فى طريق السلام الفلسطينى الإسرائيلى، بل وفى خطوات السلام العربى الإسرائيلى.

لا أحد يذكر الآن كلمة «أوسلو» عند حديثه عن السلام، اختفت الكلمة من التداول وأصبحت ملكاً للمؤرخين، أما اتفاقية السلام الفلسطينية الإسرائيلية فإنني أذكر الجميع أن اسمها الآن «اتفاقية القاهرة» وأن دور القاهرة لا ينتهي ولا يجب أن ينتهي بنزول الستار على المسرح في قاعة المؤتمرات، ولكنه يبدأ بعد نزول الستار، يبدأ هناك على الأرض في الضفة وإسرائيل، أقول على الأرض وليس في أروقة الخارجية في البلدين أو في الغرف خافتة الإضاءة، بل في وضح النهار، في الشوارع والميادين والحواري وفي الجامعات وبين المثقفين وفي قنوات التليفزيون وموجات الإذاعة، جئنا من القاهرة لنحمي اتفاقية القاهرة. لابد من تدعيم القيادة الفلسطينية الحالية مهما كان لنا عليها من مآخذ، لكي يعرف خصومها أنها لا تقف وحدها، ولابد أيضاً من تدعيم حزب العمل لأنه إذا وصل الليكود إلى الحكم في إسرائيل في الانتخابات القادمة فقل على المنطقة كلها يارحمن يارحيم..

* هذا كلام خطير.. أنت لا تطلب علاقات طبيعية فقط بين مصر وإسرائيل.. أنت تطلب تدعيم الحكومة الإسرائيلية..

- أنا أطلب تدعيم حزب العمل، وعموماً، أنا أشكرك لأنك لم تصرخ في وجهي، قبضت كام من رابين؟

الليلة الكبيرة فى القدس والحزن فى أريحا

- يا عـزيزى جـابى صـدقنى، سـأكـون عندك بإذن الله يوم الاثنين القادم فى تمام الثانية عشرة ظهراً فى قسم الأدب العربى فى الجامعة العبرية فى القدس.

* أين ستقيم فى القدس؟

- لا أعرف حتى الآن، لقد طلبت من صديق أن يحجز لى فى فندق

هناك ولم يتصل بي بعد .

* وكيف ستأتي إلى الجامعة ؟ هي تشبه بيت جحا ومبانيها متناثرة في أماكن عديدة .. نحن في جبل سكوبس .

- جابي، اكتب لي العنوان بالعربية والعبرية والإنجليزية ..

كتب لي جابي العنوان باللغات الثلاث وانصرف وهو غير مصدق أنني سأنفذ وعدي له .

***

- ألو .. علي .. أنا عبدالله أوقاديا، حجزت لك في القدس في فندق «موريا» .

* أشكرك يا عبدالله .. هل هو ثلاث نجوم ؟

- لأ .. هو نجوم كثيرة .. بل أكثر مما تتصور، وبه جراج تحت الأرض لكي تطمئن على سيارتك .. لا تهتم بمسألة النجوم، أنت ضيفي، ولكنني أنصحك بأن تجري اتصالاتك التليفونية البعيدة من خارج الفندق، وأنصحك أيضاً ألا تطلب فيه شيئاً .. كل شيء فيه سعره مرتفع جداً ..

من الواضح أن فكرة عبد الله عن حالة الكتاب المسرحيين المصريين المالية سيئة للغاية، بالإضافة إلى أنه هو نفسه يكره الفنادق المتواضعة، وعندما يأتي إلى القاهرة مع سامي ميخائيل وساسون

سوميخ يتركهما فى فندق أربع نجوم ويقيم هو فى فندق خمس نجوم، فى الغالب هى تشعره كرجل إضرابى بأنه يتحرك وسط مظاهرة، أما أنا فأشعر فى هذا النوع من الفنادق بالغربة، وبأننى أسكن فى «مدينة ملاهى»، والعاملون فى هذه الفنادق يتعاملون معك بنوع كاذب من التهذيب وكأنهم يشعرونك فى كل لحظة أنهم فى مرتبة اجتماعية أعلى منك، أو أنهم قدموا تنازلاً كبيراً عندما سمحوا لك بالإقامة عندهم.

أنت عندهم مجرد مفتاح يحمل رقماً لغرفة. أما فى الفنادق الصغيرة فأنت أقرب لأن تكون ضيفاً. لم أستمع لتحذير عبدالله بعدم التعامل مع مرافق الفندق، بما أننى وفرت ثمن النوم، فعلى إذن أن أدفع ثمن الصحيان، أن أكون كريماً مع نفسى ومع ضيوفى وهذا ما حدث فعلاً.

***

ـ ألو.. اسمي دانا.. من تلامذة الأستاذ ساسون.. ولقد حضرت معك اللقاء في الجامعة.. أريد أن أقابلك أنا وزميلتى شيرا..

دانا وشيرا تجاوزتا العشرين بقليل، الأولى تشبه لحد مذهل ابنتى الصغرى، لها وجه طفلة، وتمرح فى طفولة وفى نفس الوقت تتمتع بقدر عال من الإحساس بالمسئولية، هى تعمل مراجعة فى دار نشر لإعادة صياغة اللغة، فى الغالب اكتسبت إحساسها بالصياغة الرفيعة للغة من أمها التى تعمل مترجمة من الإنجليزية إلى العبرية. أما شيرا فهى سمراء من أصول مغربية لها ملامح آسيوية تعلوها ابتسامة دائمة

تختلط فيها الرقة بالطيبة، وهي ناضجة إلى درجة القدرة على السخرية من نفسها بلا افتعال، كانت تتكلم عن قدرة والدتها على طهو أصناف الطعام المغربية الشهية ثم سكتت لحظة وأضافت: .. أنا متأكدة أن الشباب الذين خرجوا معي لم يكن دافعهم سواد عيوني.. ولكن بسبب طبيخ أمي.

جاءتا معي من تل أبيب إلى القدس، كنت في حاجة فعلاً لمن يدلني داخل القدس على مكان الفندق بحيث أصل إليه مباشرة، بعد أن زايلتني تلك الحالة النفسية التي كنت أستمتع فيها بالتوهان داخل المدن، أنا قلق على أسرتي، فشلت في الاتصال بهم تليفونياً، اتضح لي فيما بعد أنهم رفعوا التليفون تجنباً للإزعاج الذي سببته لهم الصحافة.

في القدس اتصلتا بصديقة لهما دارسة أيضاً للغة العربية فجاءت ومعها صديقها عوفر، في الثلاثين من عمره، طالب دكتوراه يدرس الفيزياء، لم أشعر بغربة من أي نوع مع هذه المجموعة وكأني أعرفهم منذ زمن طويل، ذهبنا إلى منطقة الكورنيش، أنا أعتقد أنه أول وآخر كورنيش فوق الأرض لا يجاوره البحر أو النهر، هو كورنيش يطل على القدس من ارتفاع شاهق وقد تحولت إلى تلال من الحدائق الخضراء تتخللها المباني، ذهبنا إلى القدس القديمة، عبرنا السور الحجري الكبير من بوابة دمشق، في لحظة وجدت نفسي في خان الخليلي أو في السوق العربي في تونس. عند نقطة معينة في الطرق الضيقة المزدحمة قالت

ساجيت: لنعد من هنا الآن.. من الخطر المضى فى هذا الاتجاه أبعد من ذلك... لقد طُعن بعض اليهود بالسكاكين فى هذه الجهة.

رد عليها عوفر بهدوء: استمرى فى السير يا ساجيت.

لماذا خافت ساجيت ولم يخف عوفر؟ أو على الأقل لم يبد عليه أنه خائف؟

عوفر عضو فى جماعة تعمل من أجل السلام أعضاؤها عرب ويهود. وزميله فى السكن شاب عربى اسمه صابر وأسرة عوفر تقيم فى حيفا من مئات السنين، أنا أعتقد أن هدوءه ورباطة جأشه ناتجان من عمق احساسه بأن له جذوراً عميقة فى هذه الأرض تماماً مثل العرب لذلك هو لا يخشاهم، هذه هى أرضهم، هو وزملاؤه المسلمون والمسيحيون، حتى لو حدث مكروه، عليه أن يتقبله كما يتقبل القضاء والقدر، عليه أن يدفع تكلفة دفاعه عن السلام حتى لو كانت طعنة سكين.

عوفر لا يتكلم كثيراً، لم نتكلم عن الصراع العربى الإسرائيلى أو عن السلام، فى بعض الأحيان تقابل شخصاً يؤمن بكل ما تؤمن به فتمشيان على الأرض وقد تفرغتما للتمتع بالصحبة الطيبة وبالزمالة، أنتما زميلان فى نفس النادى.. نادى الحياة.

السؤال الوحيد الذى وجهه لى باهتمام وبحماس طفولى:.. على.. تعرف تلعب طاولة؟

- نعم.

* محبوسة؟

- من الصعب يا عوفر أن تجد مصرياً لا يلعب كل أنواع الطاولة.

أشعرته إجابتي بالارتياح، وفي المساء فوجئت به يأتي إلى الفندق حاملاً الطاولة تحت إبطه، من الواضح أن المسكين كان يبحث منذ عدة أعوام عن شخص يلعب معه الطاولة.

هل عوفر شخص شجاع؟

وما هي الشجاعة؟

لا أعتقد أن الشجاعة هي تحدي الخطر، أو عدم الشعور بالخوف، أو القدرة على إقصائه بعيداً، بل هي في القدرة على التعامل مع الخطر برقة، أن تشعر بالخوف دون أن تسمح له بأن يفسد عليك حياتك أو يحولك لشخص آخر تكره أن تكونه.

نحن الآن في قلب المنطقة العربية في القدس، عربي وأربعة يهود، تناولنا طعام الغداء في محل كبابجي: عندك كبدة باريس؟

- لا.. للأسف.

خرجت واشتريت من جزار قريب قطعة كبدة كبيرة، طلبت من الكبابجي أن يشويها لنا فرحب بذلك، هو طبعاً أمر خارج عن التقاليد الكبابية وعن أعراف المطاعم ولكني كنت واثقاً من أن الرجل سيرحب بذلك بوصفي ضيفاً مصرياً ولست زبوناً تقليدياً.

أصررت على دفع الحساب فوضع لى عوفر ورقة مالية فى جيبى بهدوء وحزم دون أن يفتح فمه، تبقت أمامنا كمية كبيرة من الكبدة والكباب فقلت لهم: هل تتصورون أننا سنترك كل هذا الأكل؟

طلبنا عدداً من أرغفة الخبز وانهمكت الفتيات فى ملئها ثم وضعنها فى كيس بلاستيك كبير، أصرّ عوفر على أن يعطينى الكيس.

- عوفر.. ليست لدى ثلاجة فى الفندق.. ماذا أفعل به؟.. احتفظ به عندك فى الثلاجة إلى أن أزورك.

فى المساء جاء هو وساجيت ومعه كيس الساندوتشات والطاولة وقال: دانا وشيرا عادتا إلى تل أبيب.. وأنا أحضرت الساندوتشات لكى نتناول العشاء معاً.

كانت الأمسية الوحيدة خلال الزيارة التى قضيتها فى الفندق، جلست ساجيت صامتة تحدق فى التليفزيون بينما انهمكت أنا وعوفر فى لعب الطاولة، عوفر الصامت دهش من الحملة الكلامية التى شننتها عليه أثناء اللعب، الطاولة تكاد تكون اللعبة الوحيدة التى لا يلعبها المصريون فى صمت، بل لا بد من حملة كلامية هجومية مصاحبة لكل رمية زهر أو تحريك «قشاط» حتى فى حالة الهزيمة: لقد تركت لك هذا الدور بمزاجى لكى أشجعك على اللعب، والآن يابطل استعد للدور الصاعق القادم.

أو من عيّنة: هل تلقيت تدريباً كافياً؟ هل درست الطاولة فى معهد

متخصص؟.. هل أنت محترف؟.. أرجوك تمالك أعصابك، لأننى سألعب معك بطريقة تسمى الزلزال ١٥ .. إلخ.

***

فى الأماكن التى لا أعرفها أذهب قبل موعدى بوقت طويل، كان جابى على حق عندما قال إن مبنى الجامعة العبرية فى جبل سكوبس يشبه بيت جحا، مصمم المبنى تسيطر على خياله فكرة الحصن ذى الممرات الدائرية والسلالم التى تتفرع من بعضها البعض ذاهبة إلى اتجاهات متداخلة، بحيث يصبح وصولك إلى المكان الذى تقصده أشبه بالمهمات الصعبة التى كان يكلف بها أبطال الحواديت القديمة، بالرغم من اللافتات والأسهم والألوان التى تزيد الأمر صعوبة.

وأخيراً قابلت جابى قريباً من القسم، لم يخبر طلبته بأنى سآتى، قال لى: إنه يريد مفاجأتهم بوجودى، أنا أعتقد أنه لم يكن واثقاً من أننى سأفى بوعدى، أو لعل تجاربه السابقة جعلته على ثقة من أن أحداً على وجه الأرض لا يستطيع الوصول بالجهود الذاتية لقسم الأدب العربى. كانت قاعة المحاضرات ممتلئة عن آخرها، عندما دخلت مع جابى صاح واحد من الطلبة العرب: فلان.. لقد شاهدتك فى التليفزيون.. هل تذكرنى؟ لقد جلست معك فى مقهى ريش منذ سنوات طويلة.

بدأ جابى يحاضر بابتسامة عريضة، كان يتكلم عن كيفية نطق حرف «القاف» ونطق نهاية الكلمة فى العامية المصرية بالنسبة

للمصرى القاهرى، والمصرى من الصعيد، اختار جابى أشعار الليلة الكبيرة للراحل العظيم صلاح جاهين، والملحن العملاق سيد مكاوى أطال الله عمره، اختارها كوسيلة إيضاح، ووزّع على الطلبة أوراقاً تحمل عدة أبيات من الليلة الكبيرة ثم أخرج شريطاً للأوبريت ووضعه فى جهاز كاسيت كبير.

الأراجوز: تمشي كده على طول على طول، لحد ما تلاقى عمارة.

استمعوا جيداً، الأراجوز ينطق العامية المصرية بلهجة أهل القاهرة، سنلاحظ أنه قال: لحد «ماتلاقى» عمارة.. لاحظوا أنه نطق الراء مفتوحة.. عمارَة.

والآن استمعوا لرد العمدة القادم من الصعيد، لحد «ما ألاجى» عمارِة..

القاف هنا نطقت جيم، والفتحة فى نهاية الكلمة تحولت إلى كسرة.

ظل الطلبة يستمعون وجابى مستمر فى الشرح.

قال لى جابى: فى العام الماضى، كنت أدرّس الليلة الكبيرة كاملة، وكان طلبتى يغنونها فى فناء الجامعة وفى الكافتريا بين المئات من الطلبة المذهولين لجمال اللحن.

حضرت المحاضرة السيدة «إيلاأفيك» من وزارة الخارجية والتقطت لى عدة صور فوتوغرافية مع الطلبة فى قاعة المحاضرات، انتقلنا إلى

قاعة أخرى، كانت المحاضرة عن المسرح المصرى، تكلم جابى طويلاً عن المسرح ثم طلب منى أن أقرأ لهم مشهداً طويلاً من مسرحية توفيق الحكيم «رصاصة فى القلب» ثم المشاهد المقررة عليهم من مسرحيتى أنت اللى قتلت الوحش.

رسالة الدكتوراه التى لم يناقشها جابى بعد، موضوعها هو الحوار فى المسرح العربى، اختياراته للمشاهد التى قرأتها تدل على فهمه العميق لموضوعه وقدرته على الوصول إليه مباشرة. عندما تقرأ العامية المصرية عند توفيق الحكيم فى رصاصة فى القلب ثم تقرأ أو تستمع للعامية المصرية التى يكتبها كتاب الدراما الجيدين الآن، تكتشف على الفور أنها قد اكتسبت قدراً عالياً من النقاء والموسيقية والتركيز والفصاحة. لقد ارتقت إلى درجة مكنتها من تقديم صورة موسيقية رائعة مثل الليلة الكبيرة، المعركة بين الفصحى والعامية زائفة ووهمية، المهم هو الوصول إلى لغة منقَّاة قادرة على الوصول إلى القلب بسرعة ولطف.

* جئت فى رحلة سلام، دعماً للسلام الإسرائيلى الفلسطينى.. ودعماً لاتفاقية غزة أريحا أولاً. وهنا همس طالب عربى يجلس فى الصف الأول: أولاً وأخيراً.

استفزتنى جملته: يا عزيزى.. لا أريد أن أتحدث فى السياسة.. لماذا تجرنى إليها؟.. ولكن لا بأس، أنت لا توافق إذن على هذا السلام.

ـ نعم ..

* لماذا؟

ـ لست أراه عادلاً.

* وماذا ستفعل أنت ليصبح عادلاً؟ ما هو الدور الذى ستلعبه للحصول على سلام عادل؟ .. بعد اتفاقية «كامب ديفيد» قال بعض المثقفين في مصر: إن إسرائيل لن تنفذ تعهداتها بالانسحاب من سيناء، وبعد أن انسحبت في المرحلة الأولى إلى خط العريش رأس محمد، قالوا أنها لن تكمل الانسحاب من هذا الخط، وأن هذا هو آخر ماستحصل عليه، ثم انسحبت طبقاً للاتفاقية إلى حدود مصر الدولية .. والآن أنت تقول غزة أريحا أولاً وأخيراً .. معنى هذا الكلام أن هذا هو كل ما سيحصل عليه الفلسطينيون. لنفرض الآن أن نبوءتك صحيحة، ماذا ستفعل أنت لنتفادى ذلك؟ ماذا ستفعل أنت من أجل أن تكون هذه المرحلة هي أولاً فقط وليست أولاً وأخيراً؟

لا يجب أن نستسهل الكلمات المريحة التى تمجد اليأس وتمنحنا فرصة الاستمتاع بالكسل العقلى والعجز عن الفعل. ضع نفسك مكان المفاوض الفلسطينى والمفاوض الإسرائيلى، كلا الطرفين ممتلىء بالخوف والشك والحذر ويخشى أن يتحرك ملليمترا واحداً بلا حسابات سياسية معقدة واضعاً فى الاعتبار كل التيارات السياسية داخل شعبه .. تقدم أنت وساعدهما على بناء الثقة اللازمة لصنع السلام، تقدم لصنع

السلام وليس للحديث عنه أو التعليق عليه بسلبية، تقدم لإزالة الخوف والحذر والشك. أي سؤال ؟

قالت فتاة عربية تجلس فى آخر القاعة: لا توجد فى مصر ديموقراطية.

- يا آنستى.. والله أنا لست هنا للدفاع عن النظام فى مصر ولا عن الحكومة المصرية.. ولكنى أقول لك بالرغم من شعور العداء لإسرائيل بين المثقفين وفى الميديا المصرية، الواضح والمستتر والذى يشكل تهديداً حقيقياً لأنصار السلام بما يدفعهم للصمت إيثاراً للسلامة، أقول لك، بالرغم من كل ذلك، لدينا من الديموقراطية ما يكفى لأن آتى إلى هنا وأن أضمن عودتى سالماً لبيتى دون أن يتعرض لى أحد بمكروه لأننى حر، مساحة الحرية فى مصر تتيح لى ذلك.

* لقد وصل الرئيس مبارك إلى الحكم لفترة ثالثة..

- نعم.. عبر صناديق الانتخابات وليس بالمدرعات.. المصريون اختاروا ذلك، مرة أخرى أنا لست هنا للدفاع عن الرئيس مبارك أو الحكومة المصرية.. وأقول لك بوضوح، إذا كانت هناك ديموقراطية فى المنطقة العربية فنحن فى مصر نتمتع بأكبر قدر منها، وأرجو ألا تفهمى من كلامى أننا قانعون بذلك.. هناك أحرار كثيرون فى مصر يكافحون فى كل لحظة من أجل الحصول على المزيد منها، وأؤكد لك أننا نكسب فى كل لحظة مساحة إضافية من الحرية والديموقراطية، وأننا ماضون

فى هذا الطريق إلى أن تتحقق الديموقراطية التى نحلم بها، لأننا نعرف أنها الطريق الوحيد لرفع مستوى المعيشة عندنا وهو شرط السلام الأول..

أى أسئلة..؟ أشكركم، السلام لكم، السلام لنا، السلام علينا، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

***

دعانى عوفر وصديقته ساجيت لحضور حفل فى منزل محامية يهودية نذرت نفسها للدفاع عن العرب. كان الحفل بمناسبة تحقق الديموقراطية فى جنوب أفريقيا.

فى حى شعبى من أحياء القدس يسكنه اليهود المغاربة دخلنا منزل المحامية المكون من طابقين. امتلأ المنزل عن آخره بالشباب اليهود والعرب من الجنسين، فى كل فرح فوق الأرض ستجد عدداً كبيراً من البشر استغرقوا فى الاستمتاع باللحظة ومجموعة صغيرة انزوت فى ركن بعيد تكافح الاستمتاع بالفرح، مع هذه المجموعة جاءت جلستى فوق سطح المنزل، فى الغالب تصوروا أننى فى إسرائيل بدعوة رسمية، لذلك بدأ الهجوم على كل ما هو حكومى وكل ما هو رسمى، قالت لى سيدة شابة: لقد أنتجت وأخرجت فيلماً عن السيدة أم كلثوم وفيلماً آخر عن محمد عبد الوهاب.. وبعت منهما نسخة للتليفزيون الفرنسى.. وبعت نسخة أخرى للتليفزيون الإسرائيلى.

ـ هذا أمر طيب..

كان الحديث يدور بيننا بالإنجليزية، ردت ساخطة: لا.. ليس طيباً، لقد أذاعوا الفيلمين في القناة العربية.

ـ هذا أمر طبيعي يا سيدتي.. مشاهدو القناة سيستمتعون جداً بهذين الفيلمين.

مرة أخرى عادت تقول في حدّة: العرب واليهود الشرقيون يعرفون جيداً أم كلثوم وعبد الوهاب.. كان يجب إذاعتهما في البرنامج الرئيسي، أنا أريد تقديم هذا النوع من الثقافة لليهود من أصول أوروبية.

خطورة هذا النوع من النقاش أن تجد نفسك وقد استدرجت للاشتباك في قضية لا تعنيك ولست طرفاً فيها، قلت لها في لطف: لو أنك كنت مديرة لمحطة الـ ليفزيون، هل توافقين على ذلك؟ هل توافقين على إذاعة نوع من الفن بعيد تماماً عن تذوق المشاهدين لقناة معينة؟.. أم أنك ستذيعين ذلك في قناة لها جمهور يتذوق هذا النوع من الفن؟.. ومع ذلك ما شأني أنا بالتليفزيون الإسرائيلي..؟.. حدثيني عن الأغاني التي أعجبتك لأم كلثوم..

أردت أن أحول النقاش الحاد إلى غناء، ولكنني فشلت في ذلك فقد التقط الخيط شاب عربي وسأل بضجر: أين هو هذا السلام الذي جئت تدعمه؟

هنا فقد عوفر أعصابه وصاح: يبدو أنكم تظنون أن الرجل جاء بدعوة من الحكومة الإسرائيلية، أو أرسلته الحكومة المصرية، وأنني مرافق رسمي له.. اليوم صباحاً في الجامعة العبرية يقول له شاب فلسطيني أن اتفاقية السلام هي غزة أريحا أولاً وأخيراً.. وأنت الآن تسأله أين هو السلام، وكأنك تستنكر وجوده هنا.

تدخلت في الحوار: عوفر من فضلك.. الرجل سأل سؤالاً وعليّ أن أجيبه.. تتساءل عن طبيعة السلام الذي جئت أدعمه؟ هو السلام الذي تحياه الآن في هذه اللحظة، منذ لحظات كنتم جميعاً يهوداً وعرباً تحتفلون بمناسبة تاريخية محاطين بالطعام والشراب والبهجة في منزل سيدة يهودية تتولى المرافعة في قضايا الفلسطينيين الذين يتعرضون للسجن والاضطهاد، أليست هذه لحظات سلام تشملكم جميعاً الآن؟ هل ترى أنه من المستحيل أن تتحقق هذه اللحظات للآخرين؟

- لم أقل أنه من المستحيل تحقيق السلام.. ولكنني أعترض على الطريقة التي يتم بها.. هي ليست عادلة..

* لابد أن هناك طريقة أخرى.. هل تتفضل بشرحها لنا.. لا شيء لديك سوى الاعتراض، كلماتك ياسيدي ليست جديدة عليّ، سمعتها مئات المرات، يبدو أن قاموسكم واحد في المنطقة العربية كلها.. وسلوككم واحد أيضاً هو الاستمتاع بثمار السلام والعمل على حرمان الآخرين منها.. أو على الأقل الاعتراض بشدة عندما يقترب الآخرون من هذه الثمار.

قال عوفر موجهاً الحديث إليه: استمعت إليك جيداً منذ بداية حديثك، أنت لا ترى أملاً في شيء، كل ما هو حولك سيئ، ومجهود البشر الإسرائيليين والفلسطينيين لن يحقق السلام، ما هو الحل إذن.. ماذا نفعل؟

قبل أن يتأزم الموقف تدخلت السيدة المحامية وأخذت في تلطيف الجو بيننا، استأذنا في الانصراف، خرج معنا سامي وهو شاب يهودي صديق لعوفر، أوصلنا حتى السيارة وقال وهو يصافحني مودعاً: علي.. لقد خرجت معكم لأقول لك شيئاً مهماً.. لا تسئ فهم هؤلاء الأولاد ولا تستاء منهم.. أنا معك، هم متطرفون في أفكارهم.. وآراؤهم تتسم بقدر كبير من الحدّة ولكني أؤكد لك أنهم بالعمل الجاد عبر سنوات طويلة أرغموا الحكومة الإسرائيلية على الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني..

- صدقني لست مستاءً منهم.. ولكني كنت أنتظر منهم وعياً بأن هناك لحظات تاريخية تقتضي منا التطرف في الرأي. وهناك لحظات أخرى تحتم علينا الإمساك ببصيص الأمل والسعي في هدوء لجعله نوراً ساطعاً يضيئ حياة الجميع.. لا أهمية لأي فكرة لا تتحول لفعل هادئ يبني الثقة بين الجميع ويبني الحياة.. ما ضايقني فعلاً هو أن أرى مجموعة من المثقفين العرب واليهود تحتفل في القدس بانتصار الحرية في جوهانسبرج في جو تملؤه البهجة والود والحب ثم يحدثني واحد من المجموعة عن أن السلام مستحيل.

فى طريقنا إلى الفندق قال لى عوفر: أنا أيضا لى أصدقاء يهود مجانين.. تصور يسألوننى باستنكار، كيف تأمن على حياتك وأنت تنام مع عربى تحت سقف واحد؟.. أقول لهم هو صديقى منذ اثنى عشر عاما. فيقولون لى: ألا تخشى أن يذبحك وأنت نائم؟!

ـ المعركة طويلة يا عوفر.. من السهل تطهير حقل ألغام، ولكنه أمر بالغ الصعوبة أن نقوم بتطهير قلوب البشر من الكراهية والفزع.

***

كنا بعد الظهر بقليل: عوفر.. هل تأتى معى إلى أريحا؟

أجاب بلا تردد: نعم.. متى؟

ـ الآن.

المسافة من القدس إلى أريحا خمسة وعشرون كيلو مترا، والطريق إليها موحش وخطر بين التلال الجرداء، قبل أن ندخلها توقفنا عند حاجز عسكرى، أظهرت لهم جواز السفر وأظهر لهم عوفر بطاقة الهوية.

تسمع عن أريحا خير من أن تراها، هى مدينة صغيرة جداً شعرت بالانقباض وأنا أدخلها فقد أحسست على الفور أنها تتنفس اليأس والتعاسة، فى مدخل البلدة كانت هناك عدة دكاكين صغيرة ومطعم ومقهى وعدد قليل من البشر لم يبتسموا من أجيال. الشعارات تلطخ الجدران كلها وهى مكتوبة باللون الأسود على عجل وفى قبح معلنة عن واقع المنظمات الفلسطينية الذى يسوده التمزق.

هي أشبه بمدينة صغيرة تعرضت لغارة وحشية ضربتها بإشعاع الفقر، الأعداد القليلة من البشر المندهشة لوجود سيارة مصرية، أشاروا لنا مرحبين، كانت المحلات في الشارع الرئيسي مغلقة ما عدا دكانا واحدا دعانا صاحبه لشرب القهوة، كان معه شاب رحب بنا وبدأ حديثه معنا.

- لا شيء.. لا بيع.. لا شراء.. لا عمل.. نحن نمر بظروف سوداء.

* هل هذه المحلات مغلقة طول الوقت؟

- لا.. الناس تعودت أن تنام وقت القيلولة.. النوم هو النشاط الوحيد المتاح لنا الآن.. أنا حاصل على بكالوريوس تجارة.. أبيع الفاكهة الآن.. كل صباح آتي بعدة كيلو جرامات من الفاكهة وأبيعها.

كنا نجلس على الرصيف أمام الدكان، صاحب الدكان والشاب وعوفر وأنا وقد أوقفت سيارتي بجواري مباشرةً، لاحظت أن سيارة جيب عسكرية بها ثلاثة جنود تأتي كل عدة دقائق لتمر من أمامنا، استنتجت أن المدينة صغيرة جداً، تأكدت من ذلك عندما ركب الشاب معنا ليرينا معالم المدينة، استغرقت جولتنا عدة دقائق، ذهبنا إلى موقع سياحي، عدة تلال، يبدو أنها تحتل في التاريخ مكاناً نسيت أهميته، كان هناك بعض السياح الألمان وعشرات الشبان يبيعون لهم أو بالتحديد يحاولون أن يبيعوا لهم الهدايا والتذكارات السياحية.. ليذهب التاريخ كله بكل مواقعه وأماكنه إلى الجحيم، لا يوجد على الأرض من هو وما هو أكثر أهمية من الإنسان.

امتلأت بالتعاسة، وبدأت في استرجاع جملة الرئيس السادات.. «نريد أن نبدأ برفع المعاناة عن الشعب الفلسطيني».. نعم، هذه هي المعاناة، الناس هنا ليسوا في سجن، ليسوا في معتقل، ولكنهم يعانون ما هو أسوأ، العجز عن الحياة في حضن الحياة نفسها.

- هذه هي ڤيلا الرئيس عرفات، يقولون أن غرفة الصالون تكلفت مائة ألف دولار.

بدأت الشائعات.

- كانت أحوالنا مختلفة عندما كان من المسموح لنا بأن نعمل في إسرائيل.. كنا نكسب كثيراً.

* نعم يا عزيزي... ولكن لا شيء مما كنتم تكسبونه انعكس على أريحا.. المدن وعاء للبشر، وهي أيضاً شريكة لهم في المكسب والخسارة، في الثراء والفقر، في السعادة والتعاسة، أنا أراها شريكة في الفقر والتعاسة فقط.

من المؤكد أن غضبي لتعاسة أريحا جعلني أظلم أهلها، ففي ظل الاحتلال لا يفكر البشر إلا في مجرد البقاء على قيد الحياة، وعندما يعجز الناس عن دفع تكلفة البقاء على قيد الحياة، يفكرون على الفور في التخلص منها. وهناك طرق عديدة لذلك «الموت واحد منها، موتهم وموت الآخرين.

البيئة الفقيرة تشعرني بالخوف ونظرات البشر التعسة تفقدني

الإحـســاس بالأمــان، فكرت فى البــداية أن أبقى إلى أن يأتى المســاء وأجلس مع وجوه البلدة فى المقهى لأتحدث معـهم، ولكننى خفت من قيادة السـيـارة ليلاً إلى القــدس، الطريق لا يوحى بالطمـأنينة، لذلك خرجنا من أريحا قبل الغروب. طوال الطريق إلى القدس لم أتبادل كلمة واحدة مع عوفر، كنت تعساً وكأن جزءاً كبيرا من أحزان المدينة تسلل إلى عقلى وسكن فى قلبى.

الطريق خطر فعلاً، هو نفس الطريق الذى مات فيه الشاعر توفيق زياد فى حادث سيارة بعد ذلك بشهرين.

يا حبيبى يا توفيق.

هل كان يجب أن أقابلك يا رجل فأحبك كل هذا الحب لكى أحزن عليك بعدها كل هذا الحزن؟

فى مسألة اللحم والعظم

لقاء في «ميشكنوت شعنانيم» وهو مبنى قديم تحيط به الحدائق ويستقبلون فيه المبدعين من أنحاء العالم وهو صالح أيضاً للإقامة، ضمت الجلسة عدداً من الدبلوماسيين الذين خدموا فى مصر وعدداً من الأدباء من بينهم الشاعر الكبير «عاميخاى» بالإضافة إلى الأستاذ ماتتياهو بيليد أستاذ الأدب العربي بجامعة تل أبيب والجنرال السابق فى

جيش الدفاع والأستاذ ساسون سوميخ، كما ضمت الجلسة سفيرين سابقين خدما في مصر وهما موشيه ساسون وشمعون شامير الذي استقال من منصبه احتجاجاً على سياسة شامير وعاد يعمل أستاذاً في الجامعة.

طلب مني الأستاذ سوميخ أن أتكلم بالعربية فمعظم الموجودين يجيدونها، قلت من بين ما قلت: إنني لا أتخيل نفسي أزور إسرائيل في حكومة شامير، كما لا أتصور إسرائيل بغير حزب العمل.

نشرت جريدة «داڤار» هذه الجملة ضمن مقال طويل وحرص المحرر على أن يقول: «نحن نثبتها بلا تعليق». أرجو ألا أكون قد تجاوزت حدود اللياقة، عزائي هو أنني أعتقد ذلك وأومن أن السلام بين مصر وإسرائيل لم يصنعه الليكود ولكنه تم بالرغم من وجود الليكود بفضل قدرة السادات على التحمل ونزاهة كارتر.

حزب الليكود وعباقرته بأفكارهم قصيرة النظر مسئولون عن كل الكوارث التي تحدث الآن للفلسطينيين والإسرائيليين. وأرجو ألا يعتبر أحد ذلك تدخلاً مني في شئون الناخب الإسرائيلي، أنا أقول رأيي كواحد من سكان المنطقة، لقد زرع الليكود ألغاماً لا خرائط لها في حقل السلام ولا يمكن إزالتها بغير آلاف الضحايا من الفلسطينيين والإسرائيليين.

***

قال موشيه ساسون: بعض كتابكم يتحدثون عن «هرولة» الدول

العربية فى اتجاه السلام، بعد خمسة عشر عاماً من التوقيع على اتفاقية السلام.. تتحدثون عن الهرولة؟

أهدانى الأستاذ ماتتياهو بيليد بحثه بالإنجليزية عن الأديب العربى أحمد فارس الشدياق ثم سألنى سؤالاً واحداً: هل سيصل الأصوليون إلى الحكم فى مصر؟

- لا..

* لماذا؟

- لن تسمح المؤسسة العسكرية المصرية بذلك.

* حتى لو...

- حتى لو أى شىء ياسيدى.

ما لم أقله للأستاذ بيليد هو أن البناء النفسى والثقافى للعسكرية المصرية على مر التاريخ هو حماية الحدود المصرية. هى تتحرك على الأرض ولا تطير فوق سحب الأفكار الضبابية، ومن المؤكد أن رجالها يعون أكثر من الآخرين الدرس الإيرانى. آخر مرة شوهدت فيها سلطة الدولة الشرعية فى إيران كانت فى مكتب بختيار رئيس الوزراء، عندما عقد اجتماعاً لجنرالات الجيش الإيرانى فى اليوم التالى لوصول الإمام الخومينى، ولم يأت واحد منهم إلى الاجتماع وانتظر الرجل فى مكتبه لمدة ساعتين إلى أن جاءته الأخبار بأنهم فى هذه اللحظة يجلسون فى

الصفوف الأولى في المسجد يستمعون لخطبة الإمام. بوصلة الانتهازية الغبية قادتهم إلى المكان الخطأ، وفي المشهد التالي كانت أجسادهم جميعاً ترقد في ثلاجة المشرحة الكبيرة.

فكرة المحافظة على الحدود هي الهاجس الأول والأخير عند المؤسسة العسكرية المصرية، ومن الطريف أن العنصر الذي حسم التحكيم في قضية طابا - على ما أتصور - هو عدة صور فوتوغرافية يحتفظ بها ضابط عجوز التقطها لجنوده عندما كان شاباً صغيراً يخدم في هذا الموقع الحدودي. بالتأكيد هذا الضابط ضاعت من ألبومه صور فوتوغرافية كثيرة، ولكن هل تضيع منه صور تحمل ملامح الحدود؟

إن الدافع النفسي عند هذا الضابط للحرص على هذه الصور يتجاوز الحرص التقليدي على الذكريات، إنه هو نفسه الدافع النفسي لحماية هذه الحدود.

حتى مبادرة السادات نفسها بكل غرابتها أستطيع فهمها على ضوء البناء النفسي عند ضابط مصري، هو على استعداد لأن يفعل أي شيء من أجل استعادة أرضه والوصول إلى حدوده، بالطبع كان مقدراً وعلى وعي بالحملة الضارية المخيفة التي كانت تنتظره داخل مصر وفي أرجاء العالم العربي ولكن كل ذلك لا يثنيه عن عزمه، الوصول إلى الحدود هو شرفه الشخصي، وهو أيضاً ما يشبع تركيبته النفسية، أما كل الاعتبارات بعد ذلك فلا أهمية لها.

عندما تفعل شيئاً تقودك إليه تركيبتك النفسية تفعله بثبات وراحة وإبداع، وهذا ما يفسر الثبات الفريد الذى ألقى به السادات خطبته فى الكنيست. بغير فهم الأبعاد النفسية للمؤسسة العسكرية المصرية من المستحيل فهم ما فعله السادات، وعندما يسخر منه محمد إبراهيم كامل وزير الخارجية السابق فى كتابه عن كامب ديڤيد لأنه قال له: «سيبنى يا محمد آكل اللحم وبعدين أمصمص فى العضم على مهلى» فإنه يقع فى خطأ فادح هو العجز عن فهم المدلول السياسى لهذه الجملة الغريبة التى لا يفهمها إلا فلاح مصرى.

السادات فى نهاية الأمر فلاح مدعو لوليمة من ولائم الريف، عدد كبير من البشر يجلسون إلى «الطبلية» وأمامهم إناء هائل الحجم ممتلئ بالفتّة وفوقها كومة كبيرة من اللحم المختلط بالعظم، وكل منهم يتظاهر بأنه منشغل عن الأكل بالحديث والمسامرة وغير مهتم بالصراع على اللحم، ولكن الفلاح الذكى يعرف القاعدة جيداً، عليه أن يبدأ بالتهام اللحم قبل أن يأكله الآخرون، بعد ذلك لا مانع من الدردشة وحكاية الحواديت أثناء مصمصة العظم.

أن يسترد سيناء هذا هو اللحم، بعد ذلك لن يغادر مكانه، سيستمر فى التفاوض من أجل الشعب الفلسطينى بعد أن اكتسب صدقية ومكاناً رفيعاً فى قلوب العالم كله كصانع سلام تضمن له النجاح فى التفاوض، لذلك سنجد عزرا وايزمان يقول فى كتابه عن السلام: «كان السادات

بإنجليزيته المتلعثمة يكسب كل شيء بينما كان بيجن ببلاغته يخسرنا قضايانا،.. وفي كتاب عاموس إيلون سأل أحد الصحفيين مسئولاً في سخط: ماذا سنتعلم من المصريين ؟

فأجابه المسئول: الدبلوماسية.

- هو صلح منفرد إذن ؟

* حسناً، سأقول لك الإجابة التي تسعدك وتتيح لك أن تنعم بأكثر المقولات سخافة وغباءً في التاريخ.. نعم، هو صلح منفرد لسبب بسيط، لا يوجد على الأرض ما يسمى بالصلح الجماعي، كما أن الاتفاق بين الحلفاء يحدث في حالة الحرب فقط، وفي المراحل الأخيرة منها عندما تلوح علامات النصر يندفع كل واحد منهم ليقضم أكبر قطعة من لحم الفريسة تاركاً العظم للآخرين. حدث هذا في نهاية الحرب العالمية الثانية ويحدث في كل الحروب التي يشترك فيها حلفاء. حتى في حرب الخليج، قبل أن تسكت المدافع اندفع رجال الأعمال من كل عاصمة أوروبية يتسابقون لتوقيع عقود إعادة الإعمار والحصول على نصيب كل طرف من اللحم، وبعد أن سكتت المدافع صاح البعض الذي كان منشغلاً بالدردشة أمام «الطبلية»: حتة اللحمة بتاعتي فين ؟

وكانت الإجابة: ما اللحمة كانت قدامك.. ماخدتش ليه ؟

ثم جرى إصلاح الأمر وتطييب الخاطر ببعض سندوتشات الروزبيف بعد أن اختفت هبر اللحم الكبيرة في بطون الأذكياء بقواعد الولائم.

الجهل بالتاريخ والسياسة وقواعد الحرب والسلام والنفاق جميعاً هى السبب فى الخجل من الإعلان أن صلحنا مع إسرائيل كان منفرداً، لأنه من المستحيل فعلاً وعملاً وواقعاً وقانوناً وشرعياً الحصول على أى نوع آخر من الصلح نسترد به أرضنا ونحصل به على السلام. ألم يكن عبدالناصر هو الذى طلب من الملك حسين أن يعمل على استرداد الضفة الغربية بأى طريقة تتاح له؟

يا ناس.. هل سنظل إلى الأبد نخترع قوانين للواقع ليست موجودة فيه أصلاً؟ ولكن ما هى حكاية الجماعية هذه التى تعشش فى عقول البعض؟

هرستنا ماكينة الجماعية وحولتنا لكتلة واحدة، اختفت ملامح الفرد تماماً، لسنوات طويلة وقفنا «جميعاً» أمام الجمعية التعاونية انتظاراً لسلعة ما، واحتشدنا «جميعاً» فى الميادين لسماع خطاب الزعيم، وحبسنا الأنفاس «جميعاً» انتظاراً لسماع نبأ هام سيذاع بعد دقائق ويؤثر علينا «جميعاً». تقدمنا «جميعاً» بأوراقنا لمكتب التنسيق، وانتظرنا «جميعاً» توزيعنا على الجامعات، ثم انتظرنا «جميعاً» التعيين، وانتظرنا «جميعاً» منحة عيد العمال ومنحة العيد وفى النهاية ننتظر «جميعاً» قانون المعاشات الجديد.

أما بالنسبة للمثقفين من كل الأجنحة وكل التيارات الفكرية والسياسية فقد اعتقلوا أيضاً «جميعاً» وعذبوا «جميعاً» وأفرج عنهم «جميعاً» ثم عينوا «جميعاً» فى وظائف تابعة للدولة.

قال لى صديقى المرحوم الشاعر أمل دنقل: «كل شاب مصرى، سُجن أو كاد أن يسجن، ومن أفلت، أفلت بالصدفة أو بحسن الطالع ومنهم كاتب هذه السطور، ومع ذلك فالفرصة مازالت متاحة أمام هؤلاء الذين لم يصبهم الدور من قبل، لا يأس مع الحياة.

الأشياء تحدث لنا «جميعاً» فلماذا يشذ الصلح مع إسرائيل عن ذلك؟

لماذا لا يحدث لنا الصلح «جميعاً» مع إسرائيل بضربة واحدة أو باتفاقية واحدة؟

الإجابة هي: أى مخلوق على الأرض يفكر بشكل طبيعى أو شبه طبيعى يعرف بيقين أن الصلح الجماعى فى هذه القضية بالتحديد مستحيل، لأن أى طرف من الأطراف يستطيع فى الوقت المناسب أو غير المناسب إفشال الأمر كله لحسابات خاصة قطرية أو زعامية أو بسبب انعدام روح المسئولية.

ما العمل مع زعيم خطف شعباً وانتحى به ركناً قصياً من أركان التاريخ وأخذ يأكل لحمه ويمصمص فى عظامه على مهل؟ ما العمل مع زعيم نجح بثروته المذهلة فى أن يوفر لشعبه الرعب والبؤس والخراب..؟

ما العمل مع رؤساء دول وممالك أتحداك أن تعرف حقيقة ما يفكرون فيه أو يريدونه أو يهتمون به؟

ما العمل مع رئيس دولة يريد السلام بالفعل ولكن ماكينة الإدارة لديه فى حاجة لسنوات طويلة لفك تروسها ومساميرها التى صنعت كلها من حديد الحرب وسبائك الشك والكراهية؟

هل تتوقع من هؤلاء أن يجلسوا معك على مائدة التفاوض ويتفقوا على شىء واحد؟ أى شىء. هل كان يجب أن نترك سيناء لإسرائيل وأن نترك الملايين من سكان مدن القناة مشردين فى الأرض، وأن نستغنى عن دخل قناة السويس إلى أن يحدث اتفاق جماعى نحن متأكدون جميعاً من استحالة حدوثه؟

- ولكن السادات استرد سيناء بلا سيادة.. أو ناقصة السيادة.

* حمداً لله، أخيراً أجد شخصاً يكلمنى عن السيادة، أنت تشعرنى بالفرحة لأننى أسعد جداً بالبشر الذين يتألمون لفقد السيادة.. وهى أيضاً فرصة لتشرح لى معنى «السيادة»، أعترف لك وأنا أقترب من الستين من عمرى أننى لا أعرف بشكل واضح بعض الاستخدامات لهذه الكلمة «السيادة»، فأنا مثلاً لا أعرف معنى تعبير «وزارات سيادية» هل معنى ذلك أن بقية الوزارات لا سيادة لها.. وهناك أيضاً «القرار السيادى»، يعنى قرارا أقوى من التشريع والقانون، يعنى أقرب لأن يكون قراراً إلهيا، مع أن الذى أصدره بشر، فماذا تقصد بأن السادات استرد سيناء بلا سيادة؟ هل ترى أنك لست سيداً على سيناء؟

- طبعاً..

* لماذا؟

- ليس لي الحق طبقاً للاتفاقية أن أتحرك بقواتي عليها.

* وهل أنت تريد أن تتحرك بقواتك هناك بالقرب من حدود دولة اتفقت معها على السلام؟

- طبعاً..

* لماذا؟ هل تنوي محاربتها..؟

- لا.. ولكن لكي أشعر بالسيادة على سيناء.

* الخطأ ليس في الاتفاقية إذن، بل في فهمك لكلمة السيادة، ولمصادر «الشعور» بالسيادة، درس التاريخ يقول، الجيوش تتحرك في حالتين فقط، المناورات والحرب. وليس لإشعار الذات أو الآخر بالسيادة. كان هذا هو خطؤنا الوحيد في ١٩٦٧. حركنا المدرعات ليس من أجل المناورات وليس من أجل الحرب فحدث ما حدث.

السيادة لا تمثلها المدرعات بل القوانين وقدرة الدولة على فرضها على الجميع. أنت سيد على الأرض عندما تحمل الفأس في حماية القانون داخل حدودك، أما البندقية فأنت لا ترفعها إلا عندما يهددك شخص بحرمانك من حمل الفأس وحماية القانون، هذه هي السيادة، سيادتك على سيناء تتحقق بالفأس وحدها، لقد استغرق الأمر سنوات طويلة لإقناع بعض الناس بإعمار سيناء، كانوا يردون علينا بمقولات

شديدة الذكاء من نوع: من المستحيل استراتيچيا الدفاع عن سيناء.. هل نعمّرها ثم تحتلها إسرائيل فى النهاية؟

يالبعد النظر، نعم، عمّروها لكى تصعبوا الأمر على إسرائيل. وأخيراً بدأ تعمير سيناء جنوباً وشمالاً ومازالت حركة التعمير مستمرة بإيقاعات متسارعة بعد أن سقطت كل الأفكار الغبية التى تبدو دائماً براقة وذكية.

لم يسترد السادات سيناء بلا سيادة أو ناقصة السيادة، اتفضل.. كن سيداً عليها ولكنى أذكرك بأن هذا الأمر فى غاية الصعوبة لأنه يتطلب أن تكون سيداً أصلاً، عند ذلك تتسيدها وتتسيد كل شبر فى أرض مصر.

أنا أحارب، إذن فأنا مقتول

المركز التجارى فى القدس يقولون عنه أنه أكبر مركز تجارى فى العالم، فى إحدى الكافتريات المتناثرة بالمركز طعن شاب فلسطينى جنديين إسرائيليين وهرب هو وزميله، غير أن الأهالى تمكنوا من إلقاء القبض عليهما. هذا الحادث والحوادث المشابهة يهدم نظرية الأمن الإسرائيلية القديمة من أساسها.

عدد كبير من ساسة إسرائيل القدامى كانوا يعتقدون أن القوة هي الضمان الوحيد للأمن فخلطوا بذلك بين الأمن للأرض من وجهة نظر عسكرية والأمن الحياتي للمواطن. تستطيع بالقوة احتلال قطعة كبيرة من الأرض، ولكنك ستعجز حتماً باستخدام القوة عن احتلال أي موقع في قلب عدوك. وبذلك تفشل كل مدرعات الدنيا في حمايتك من شخص واحد مسلح بالكراهية والضياع والرغبة في الموت ويستطيع الوصول إليك بسهولة أو بصعوبة.

الأمن يستند للحق الشرعي الذي تحميه القوة، ولكن القوة بحد ذاتها كما يقول چيمس ستيوارت مل: لا تنتج حقاً شرعياً. بعض الساسة في العصر الحديث يتصورون أن أفكار الفلاسفة القدامى فقدت الاعتبار أو الصلاحية بفعل التقدم ولم تعد مجدية كمصابيح الزيت القديمة، من هذه الأفكار ما قاله أرسطو في كتابه «السياسة» عن الفرد والدولة. قال أرسطو: إن الدولة سابقة على الفرد وإن الإنسان في حاجة إلى الدولة، وأن الوحيد القادر على الاستغناء عن الدولة لابد أن يكون وحشاً أو إلهاً.

بتقليب الفكرة على وجوهها مستعينين بمعطيات الواقع الذي هو أكثر صدقاً من كل النظريات نستطيع أن نقول: بضعف الدولة يتحول بعض الناس إلى وحوش والبعض الآخر إلى آلهة، أو يكتسبون الصفتين معاً.

ولكن ماذا يحدث عندما تختفي الدولة نفسها؟ أليس من المحتم أن يتحول البشر جميعاً في هذه الحالة إلى وحوش وآلهة؟

ألا يمكن فهم ما يحدث فى الضفة وغزة وأماكن أخرى فى المنطقة العربية على ضوء هذه الفكرة؟

لابد من الدولة وإن طال السفر، البشر فى حاجة إلى دولة ليظلوا بشراً.

من المستحيل تصور الإنسان بلا دولة، ومن المستحيل تصور الدولة بغير العدل الذى يسمى فى العصر الحديث الحرية السياسية والاقتصادية.

لقد ناقش «ميكافيللى» من قبل فكرة القلاع وصلتها بحماية الدولة وانتهى إلى أن القلاع فى حد ذاتها لا تحمى الدولة، وأن الطريقة الوحيدة لحماية الدولة هى أن يبنى الأمير قلاعه فى أفئدة شعبه.

لقد روج بيجن لفكرتى القوة والحرب بمقولات رومانسية ضارة من بينها: «درست التاريخ جيداً وأعرف أنه صُنع بالسيف» الواقع أن هذه المقولة تبدو للوهلة الأولى صحيحة ومقنعة لعقول كثيرة تعشق الإيجاز والتبسيط غير أن التاريخ للأسف تم صنعه بشكل أكثر تعقيداً. فالسيف تحمله ذراع، والذراع مركبة فى جسد، والجسد يعلوه رأس والرأس بداخله عقل، والعقل بما حوى من مبادئ هو الذى سيقرر حركة السيف ومساره وهدفه، التاريخ لا يصنعه أى سيف، ولكن السيف المحارب من أجل العدل، السيف الجاهز لصنع السلام.

هناك مقولة أخرى براقة فى كتابه (الأرجون): «أنا أحارب إذن فأنا

موجود»، هذه الفكرة ككل الأفكار المثالية التى تنبع من غريزة العدوان مباشرة، المتنكرة فى ملابس المقاتلين دفاعاً عن الوجود، كذَّبها الواقع بقسوة فتحولت مع الأيام إلى: «أنا أحارب إذن فأنا موجود إلى أن تأتى أنت وتنهى وجودى بطعنة سكين أو بشحنة ناسفة». الفكرة التى ستمتد بعمر الزمن هى: «أنا أحارب دفاعاً عن نفسى إلى أن نتفق على السلام.. أنا أريد السلام إذن فأنا موجود، وأنت أيضاً موجود عندما تريد السلام»..

ياله من طريق شاق، طريق السلام، ويالها من مهمة صعبة، مهمة إقناع الناس فى المنطقة العربية وإسرائيل، أن يعودوا إلى صورتهم الطبيعية كبشر ويكفوا عن أن يكونوا وحوشاً وآلهة..

***

طافت بذهنى هذه الأفكار وأنا جالس فى نفس الكافتريا مع ڤيكتور نحمياس، وهو يهودى مصرى من حى الظاهر، كان طالباً بالسنة الثالثة بكلية الصيدلة عندما ترك مصر. لم يواصل دراسة الصيدلة، درس الإعلام وهو الآن يقوم بتدريس مادة «الإعلام المصرى» بجامعة تل أبيب بالإضافة لعمله فى مؤسسة عملها الوحيد هو جمع التبرعات من يهود العالم. تجمع فى العام حوالى خمسمائة مليون دولار. دعنى أجعلك تقترب أكثر من طريقتهم فى التفكير فى الحصول على فلوس، عندهم مشروع يسمى «الحصالة الزرقاء» هو مشروع خاص بالأطفال

اليهود في العالم، ضع في الحصالة أي سنت، أي بنس، أي عملة وأرسلها إلى إسرائيل في نهاية العام. يجمعون من هذا المشروع وحده ثلاثين مليون دولار.

مع ڤيكتور ومع مائير كوهين مراسل التليفزيون في المنطقة العربية فشلت في الشعور بأنني أجلس مع يهود مصريين أو مصريين يهود. شعرت فقط أنني أجلس مع أصدقاء مصريين.

بعد اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل، جاء ڤيكتور إلى مصر وكان يعمل في ذلك الوقت في التليفزيون الإسرائيلي، جاء لعمل فيلم تليفزيوني عن السلام، ذهب إلى حي الظاهر وطلب من المصور أن يقوم بتصوير ما يحدث بلا خطة سابقة، اقترب من منزله، كان البواب العجوز جالساً أمام المنزل وقد استغرق في النوم، ربت على كتفه برقة، فتح الرجل عينيه وحدق فيه ثم صاح: بيكي؟!

«بيكي» هو الاسم الذي كانت تناديه به الأسرة وأصدقاؤه في الشارع عندما كان شاباً صغيراً.

***

سألت مصرياً يعمل في التليفزيون في القدس: هل زرت مصر بعد اتفاقية السلام؟

ـ أوه... زرتها اثنتي عشرة مرة.

كم عـدد المرات التى يزور فيـها المصـرى المغترب مصـر فى نفس العدد من السنوات؟

فى لقاء مع خمسة وثلاثين شخصاً يعملون فـى الخارجية الإسرائيلية سألنى واحد منهم: خرج اليهود المصريون من مصر مرتين، واحدة فى الزمن القديم، والأخرى فى العصر الحديث.. وكانت لهم أنشطة ثقافيـة فى مصر.. هل تفتقدون الآن هذا النشاط الثقافى؟

صـاحب السؤال كان يجلس بعيداً عنى فى نهـاية القاعة، همست لى سيدة تجلس بجوارى: هو مصرى مولود فى مصر.

أجبتها: أعرف يا سيدتى أنه مصـرى.. أنا أشم رائحـة المصـرى من بعيد.

وأجـبـتـه: أنا أعـرف بالـفـعل أنهم كـانوا يدعـمـون بعض المجـلات الثـقـافـيـة، ولكن رداً على سؤالك أجيبك بأننا لا نشعر الآن بافتقاد هذا النشاط.. ولكنى أقول لك: الأجيال الأكبر منا سناً.. التى عاشرت اليهود فى مصر، عندما يتكلمون عنهم، يقولون: كانوا أمناء.

إن أقوى جسور السلام بين مصر وإسرائيل هم اليهود المصريون. لا أعرف على وجه التحديد كيفية الاستفادة من وجودهم هناك، ولكنى أتصور أن إقامـة مؤتمر لهم فى القاهرة أو فى الإسكندرية تحت شعار: «ماذا تريدون من مصر؟» سيساهم حتماً فى بناء الثقة بين الشعبين.

***

تركت القدس وذهبت إلى حيفا، أقمت ليلتين، كان يجب أن أقابل سامي ميخائيل، حضرت عيد ميلاد واحد من أقاربه في الستين من عمره، رحبت بي الأسرة، المرأة اليهودية التي تخطت الخمسين من عمرها ليست هي الأنثى اليهودية التي تخطت العشرينيات التي أراها في الشارع. الجيل القديم من النساء اليهوديات تستطيع أن تقرأ بسهولة على وجوههن كل ملامح الشقاء القديم. ولكن الجيل الجديد مختلف تماماً، هن يخدمن في كل المجالات بما فيها الجيش والشرطة، بعضهن يرتدين الحذاء «البوت الطويل» والسيقان عارية، أقل قدر من الملابس، أقصر من الميني جيب والميكروجيب، الأجسام قوية وصحيحة، ولكن من الغريب أن هذا العري لا يستدعي في ذهنك فكرة الفراش، على العكس من ذلك، هو يدفعك إلى التفكير في ألا تقع في مشكلة مع هذه الأنثى، كل ما ستفكر فيه هو أن تبتعد عنها، هي ماكينة إنسانية جميلة وقوية يوحي منظرها بأنها قادرة على البطش.

هناك بالطبع اليهوديات اللاتي يرتدين الملابس الطويلة، ولكن في كل الأحوال المرأة الإسرائيلية مواطن درجة أولى. كما أن المجتمع كله على وعي بأن العفة مركزها العقل، وأن الانحلال أيضاً يبدأ في العقل قبل أن يعلن عن نفسه في الفعل. إن ألف طن من الورق نسوّدها في الدفاع عن حقوق المرأة المصرية لا أهمية لها إلى جوار قرار يصدر بأن تعمل المرأة المصرية في كل المجالات وكل الميادين، وأولها

الشرطة والجيش. لقد كانت المرأة المصرية تعمل فى الشرطة ثم صدر قرار بإلغاء هذا النظام، وأنا أقول بكل وضوح: هذا قرار غير مسئول وغير دستورى.

***

خرجنا من عيد الميلاد أنا وسامي، كانت في انتظارنا سيارة ستقلنا إلى قرية «خرفيش» في أقصى الشمال من حيفا، كانت هناك حركة إصلاح للطريق.

- إسرائيل تستعد للسلام مع سوريا.. هذا الطريق صاعد إلى دمشق.

* إذا امتد بي العمر يا سامي فسأذهب من القاهرة إلى دمشق بسيارتي من هذا الطريق.

أقيمت الندوة في قاعة كبيرة في مدرسة ثانوية، حضر الندوة سميح القاسم ونزيه خير، وهو ناقد ومترجم شهير، وعادة أهارون وهى كاتبة يهودية مصرية وأستاذة بالجامعة، وأدار الندوة الكاتب نمر نمر وهو من أهل القرية، كانت الندوة تناقش قضية الثقافة والسلام، قدمني سامي إلى جمهور الحاضرين فألقيت كلمة قصيرة: منذ سنوات طويلة جاء أخي إلى حدودكم راكباً مدرعة أو سيارة مصفحة ولم يعد إلى البيت. ولعل إخوة وأبناء لكم جاءوا إلى الحدود المصرية راكبين المدرعات ولم يعودوا إلى البيت. ولكنى جئت إليكم راكباً سيارتى لكى أثبت للمصريين والإسرائيليين أن بيننا حدوداً مشتركة، وأنكم قريبون منا، وأننا قريبون

منكم، وأن هذه المنطقة لم تعد صالحة للتنقل بالمدرعات، وأن الطريقة الوحيدة التى تضمن لنا العودة لأولادنا سالمين هى أن نتحرك فى هذا الجزء من العالم بالسيارات والجرارات. وهى أيضاً رسالة لكل جنرالات الحرب في المنطقة بأنه قد جاء الوقت الذى يفسحون فيه الطريق لنا نحن جنرالات الحرف لنصنع السلام.

عدت مع سامى إلى حيفا بعد منتصف الليل، الأنوار المنبعثة من القرى العالية ترصع بكثافة الجبال والتلال. كمية الأنوار جعلتنى أتصور أن الجبال تحتفل فى صمت بعرس كبير، لعلها تحتفل بزفاف التلال إلى بعضها البعض.

الشمـس علـى يمينـى

خرجت من حيفا ظهراً فى طريقى جنوباً إلى الحدود المصرية، أكره قيادة السيـارة وسط المدينة ولكنى أحبـها فى الطرق الطويلة فمـلامح الواقع حولى تتغير فى كل لحظة وكأننى أنا الذى أقوم بتغييرها، وهى تتيح لأفكارى أن تنسـاب فى حرية. لا أوهام عندى حـول مـا ينتظرنى فى القـاهرة، أعـرفـ مـا سـأواجـهـه، لا حـد للألم الذى يشـعـر به مـعظم

الناس عندما ترفع عنهم فجأة غطاء الأوهام والأكاذيب، لا حد للضياع الذى يشعرون به عندما ترغمهم على الحرية والتفكير المسئول.

ولكن بعد سكون العاصفة ستفكر أجيال من الشباب فى رحلتى بهدوء وتكتشف ما أريد لها أن تكتشفه وهو أن حالة الحرب العقلية حالة معطلة وتحجب عنا شمس الحرية والتنمية. لا تفصلنا عن إسرائيل حقول الألغام ولكن طرقاً معبدة مشيت عليها بسيارتى ذهاباً وإياباً.

زيارتى قصيرة للغاية، لا تتيح لى أن أصف الإسرائيليين بأكثر مما يستطيعه راكب سيارة سريعة تمر بجماعة من الناس. ليلتان فى ناتانيا، ليلة فى أم الفحم، ثلاث فى الناصرة، سبع فى تل أبيب، ليلتان فى بير سبع، ست فى القدس، ليلتان فى حيفا، المجموع ثلاث وعشرون ليلة. والآن على أن أجرد حصيلتى من الأفكار، سأطرح على نفسى أسئلة وأحاول الإجابة عليها.

كيف يرى الإسرائيليون أنفسهم؟

منذ أعوام طويلة، فى منتصف الستينيات بالتحديد كانت المقولة الشهيرة فى الغرب عن إسرائيل هى أنها «منارة الديموقراطية فى المنطقة» ولكن هذه الأيام وبعد أن قطعت مصر وبعض البلاد العربية شوطاً فى طريق الديموقراطية، ظهرت مقولة جديدة كان رابين هو أول من استخدمها: «نحن جزيرة الرخاء وسط بحر من الفقر» هذا هو بالضبط مصدر الخطر على إسرائيل.

لا أعرف السبب فى أن هذه المقولة استدعت فى ذهنى جملة قديمة لهنرى كيسنجر قالها فى عام ١٩٧٣ عندما أصدر العرب قراراً بحظر تصدير البترول إلى الغرب، الجملة هى: «على الغزلان ألا تتباهى بطيب لحمها أمام الذئاب»، أن تكون غنياً وسط جمع من الفقراء أمر يدفع على الفزع ويزيح السلام بعيداً، لذلك سنرى بيريز بعد ذلك يقول فى حديثه مع جريدة الأهرام المصرية المنشور فى ١٨ يولية ١٩٩٤: «ونعتقد أن البديل الوحيد إذا لم يرتفع مستوى المعيشة بشكل كبير هو انتشار الأصولية، لذلك فإننا نريد فعلاً الاشتراك فى المحاولات الجدية لتحسين مستوى المعيشة وزيادة الدخل القومى ودخل الفرد فى جميع الدول، لا نريد أن نظل جزيرة الرفاهية وسط بحر من المشاكل».

دقق فى جملته الأخيرة ستراه استخدم كلمة.. المشاكل بدلاً من كلمة الفقر بدافع من التهذيب على الأرجح، ولكن المقولة تظل صحيحة لأن الفقر سيظل للأبد أعظم مصدر ومصدّر للمشاكل.

ولكن لكى تكتمل الصورة، لنفرض أن مخلوقاً من كوكب بعيد نزل إلى الأرض وطلب أن يزور عدداً من كبار المسئولين والصحفيين ووجهاء القوم العرب، ثم طلب أن يزور نفس العدد ونفس النوعية من نظرائهم فى إسرائيل ثم عاد إلى كوكبه، ماذا سيكتب فى تقريره؟ من المؤكد سيقول: «العرب أثرياء جداً واليهود فى غاية الفقر».

إن أصدق وصف للإسرائيليين كما يرون أنفسهم هو ما قاله عاموس

إيلون: «سيدهش المصريون عندما يكتشفون أننا أمة من الطبقة الوسطى الدنيا».. وهذا صحيح، هم طبقة وسطى مستورة، لا توجد فجوة كبيرة في الدخول بين البشر، بالطبع هناك فقراء ولكنهم يحرصون على تقليل مساحتهم وإضافة المزيد في كل لحظة إلى شريحة الطبقة الوسطى العريضة، لأن التاريخ لا يتقدم إلا على أكتاف الطبقة الوسطى، فهي الوحيدة القادرة على إمداد المجتمع بالصفوة القائدة في كل المجالات.

في طريقي جنوباً إلى الحدود المصرية، لا أستعين بخرائط، أنا أحرص فقط على أن تكون الشمس على يميني.

ماذا يحدث في المنطقة الآن؟

بعد انتهاء الحرب الباردة ضاقت مساحة الأسرار فوق الأرض. كل أوراق اللعب أصبحت مكشوفة على مائدة التاريخ. لست في حاجة للسطو على وثائق المخابرات الإسرائيلية والعربية لأعرف ما يحدث الآن. فما يحدث واضح. هناك دول عربية أعلنت بشكل أو آخر عن انضمامها لقافلة السلام. أما بقية الدول فتوجد بينها وبين إسرائيل قنوات دبلوماسية سرية تعمل ليل نهار للاتفاق على طبيعة السلام الذى تفضله كل دولة. في تقديرى أن السلام بين سوريا وإسرائيل سيتأخر حتى نهاية القرن، ولكن الأمر المؤكد الوحيد في المنطقة هو أن فكرة الحرب بين العرب وإسرائيل لم تعد واردة على ذهن أحد.

ارتفاع مستوى المعيشة هو الذى سيحدد درجة حرارة السلام. لذلك

أتنبأ بسلام دافئ بين دول الخليج وإسرائيل، وسيكون أكثر دفئاً بين رجال الأعمال من الطرفين، كما ستكون المنطقة والعالم كله مسرحاً لنشاطهم.

ماذا عن الفلسطينيين والأردنيين؟

من السهل التنبؤ بما سيحدث بين الإسرائيليين والفلسطينيين والأردنيين. بالتأكيد سيجمعهم هيكل إدارى واقتصادى واحد يفرضه الواقع وليست الشعارات. توجد قطعة أرض واحدة يعيشون عليها فى جيرة وتداخل، الأرض أكثر صدقاً وصلابة من كل الأدمغة التى تمشى فوقها، ستفرض الأرض قانون الجيرة على الجميع، ستنهزم جيوش الشك والحذر والكراهية فتنسحب من فوق الأرض ومن القلوب مخلية الطريق لفرق السلام التى تحمل أعلام الحرية والتعليم والصحة والأمن والعدل والإبداع، وستسقط ضحايا كثيرة على الطريق. ولكنه قدر الجميع وقدر المنطقة، أن يدفع الجميع ثمن غباء الجميع.

ماذا عن الرئيس عرفات ورجاله؟

الامتحان الوحيد الذى سيدخله الرئيس عرفات ورجاله فيه سؤال واحد إجبارى: يا زعماء.. هل تستطيعون العمل مديرى عموم؟

عقلية المدير العام تختلف اختلافاً كبيراً عن عقلية الزعيم. الزعيم يبحث عن خطبة مؤثرة أو حركة سياسية مدهشة أو عدة كلمات غامضة تبعث الفرحة فى قلوب الجماهير. أما المدير العام فهو شخص قادر على إدارة حركة الناس ودفعهم للعمل فى إطار من التشريع الجيد والانضباط الإدارى.

المدير العام يحرص على النجاح والإنجاز، بينما الزعيم يبحث عن الإعجاب والإعجاز. المدير العام يخشى مساءلة الأجهزة الرقابية والرأى العام، أما الزعيم فلا رقيب عليه إلا الله سبحانه وتعالى. المدير العام يسجل حساباته في دفاتر ويكتب أفكاره في مذكرات ويحفظ وثائقه في ملفات، بينما الزعيم يحتفظ بأرقام الحسابات في ذاكرته القوية، ولا يسجل أفكاره الحقيقية في المذكرات ليحميها من الفضوليين ولا يحتفظ في ملفاته سوى بالوثائق والمستندات التي تدين العاملين معه.

المدير العام بشر صُنع من طين والزعيم بشر أيضاً ولكنه صُنع من خزف ثمين. إذا تصور مخلوق أن الفلسطينيين من أهل الضفة وغزة يمكن حكمهم حكماً شمولياً أبوياً فهو واهم، ولكن لحسن الحظ، حظ الجميع أن هذا الوهم قادر على البقاء فترة قصيرة، حتى أقرب موعد للانتخابات. وإذا تصور بعض الناس أنه من الممكن ترك الإجابة على هذا السؤال الإجبارى طمعاً في النجاح بدرجة مقبول فعلى الأرجح سينجحون فقط في «التخرج» من المنطقة كلها بدرجة زعماء سابقين.

ما زالت الحدود المصرية بعيدة ولكنى على الطريق الصحيح، الشمس على يمينى.

من يحكم إسرائيل؟

سأجيب على هذا السؤال ولكنى أنبه القارئ بقوة إلى أننى لست

مسئولاً عن صحة أفكارى بمعنى انطباقها بالضبط على الواقع، أنا مسئول فقط عن صدقها. فلست أزعم أننى مركز أبحاث سياسية متنقل، أنا أسجل فقط على الورق ما استوعبه عقلى.

إسرائيل يحكمها الشارع والصحافة ورئيس البلدية والحذر. أما الحكومة فهى تعمل فى السياسة فقط. كل رئيس بلدية مسئول عن إدارة مدينته أو قريته، فقد اكتشفوا اكتشافاً مذهلاً هو أن هناك عدداً كبيراً من البشر يصلحون للعمل كمسئولين عن إدارة المدن وإدارة حركة المواطنين. وأن الله سبحانه وتعالى عندما أنزل قدراً هائلاً من الذكاء والإحساس بالوطنية والمسئولية على الوزراء ومن فى حكمهم أرسل فى نفس الوقت نفس القدرات والمواهب على غيرهم.

هنا سأتوقف قليلاً لأذكر للقارئ حكاية جاءت فى التوراة (سفر الخروج، الإصحاح ١٨) فقد يكون لهذه الحكاية صلة ما بمكونات العقل اليهودى والعقل الغربى عموماً. هى عن واقعة حدثت لموسى وشعبه بعد الخروج من مصر.

«وحدث فى الغد أن موسى جلس ليقضى للشعب، فوقف الشعب عند موسى من الصباح إلى المساء، فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب قال: ما هذا الأمر الذى أنت صانع للشعب؟ ما بالك جالساً وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح إلى المساء؟ فقال موسى لحميه: إن الشعب يأتى إلىّ ليسأل الله إذا كان لهم دعوى يأتى إلى فأقضى بين الرجل وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه.

فقال حمو موسى له: ليس جيداً الأمر الذى أنت صانع، إنك تكلّ أنت وهذا الشعب الذى معك جميعاً، لأن الأمر أعظم منك، لا تستطيع أن تفعله وحدك، الآن اسمع لصوتى فأنصحك، ليكن الله معك، كن أنت للشعب أمام الله وقدم أنت الدعاوى إلى الله، وعلمهم الفرائض والشرائع وعرفهم الطريق الذى يسلكونه فى العمل الذى يعملونه، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى قدرة خائفين الله، أمناء مبغضين للرشوة وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات فيقضون للشعب كل حين. ويكون أن كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها إليك وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها وخفف عن نفسك فهم يحولون معك. إن فعلت هذا الأمر وأوصاك الله تستطيع القيام وكل هذا الشعب أيضاً يأتى إلى مكانه بالسلام».

نحن هنا أمام قضية الإدارة وهى مسألة دنيوية بحتة لا دخل للسماء فيها. حتى سيدنا موسى النبى العظيم صاحب المعجزات فى حاجة لأن يتعلم قاعدة الإدارة من حميه شيخ القبيلة صاحب الخبرة الطويلة فى إدارة حياة الناس. وحموه واضح معه فى جمل قصيرة محددة بلا مجاملة، ليس جيداً ما تفعله الآن، سيستولى عليك الإجهاد أنت والشعب، الأمر أعظم منك، لا تستطيع أن تصنعه وحدك.. كل ما هو مطلوب منك أن تشرح لهم ما هو مطلوب منهم.. وعليك أن تبحث عن رجال «ذوى قدرة خائفين الله أمناء مبغضين للرشوة» ثم عينهم مسئولين عن إدارة شئونهم.

هذه هي قاعدة الاختيار الأزلية في الحكم والإدارة، رجال قادرون، يخافون الله، يكرهون الرشوة. ولكن النسخة الإنجليزية تذكر الجملة الأخيرة بشكل أقرب للمعاني المعاصرة وهي «الكسب غير المشروع» Dishonest gain.

حتى في ذلك الوقت البعيد منذ آلاف السنين كان هناك بشر يحبون الكسب غير المشروع وآخرون يبغضونه. والنسخة الإنجليزية أكثر دقة عندما تستخدم تعبير «الاختيار» Select بدلاً من كلمة النظر. وتستخدم تعبير «جديرين بالثقة» Trustworthy بدلاً من كلمة أمناء في النسخة العربية، وهذا بديهي لأن الأمانة متضمنة أصلاً في كراهية الرشوة أو الكسب غير المشروع.

لا أستطيع مقاومة الرغبة في إيراد جزء من الإصحاح كما جاء بالإنجليزية ثم تقديم ترجمة له.

"But select capable men from all the people, men who fear God, trustworthy, men who hate dishonest gain, and appoint them as officials over thousands, hundreds, fifties and tens, have them serve as judges for the people at all times, but have them bring every difficult case to you.

The simple cases they can decide themselves that will make your load lighter, because they will share it with you.

If you do this and God so commands, you will be able

to stand the strain, and all these people will go home satisfied".

«ولكن اختر من بين الناس رجالاً قادرين، رجالاً يخشون الله، جديرين بالثقة، رجالاً يبغضون الكسب غير المشروع، وعينهم مسئولين عن الآلاف والمئات والخمسينات والعشرات. اجعلهم يقضون بين الناس على الدوام، ولكن ليرفعوا إليك القضايا الصعبة، أما القضايا البسيطة فيستطيعون هم إصدار القرار فيها. هذا سيجعل حملك أخف لأنهم سيشاركونك فيه. إذا فعلت ذلك بأمر الله فستكون قادراً على تحمل العبء وكل هؤلاء سيعودون إلى بيوتهم راضين».

السؤال هو: هل سيدنا موسى لم يكن واعياً بأبسط مبادئ الحكم هذه وهو الذى تربى فى قصور الصفوة الحاكمة فى مصر الفرعونية ولم يخرج من مصر إلا بعد أن تخطى الثمانين من عمره؟

أنا أقول إنه كان يعرف. بل كان يعرف من أسرار الحكم والإدارة أكثر من ذلك بكثير، وهو الذى خطط ونظم لخروج شعب بأكمله سراً. كان يعرف، ولكن المعرفة لا تشفى كما يقول علم النفس. هو بشر فى النهاية وكان لابد أن يأتى له بشر آخر لينبهه إلى الخطأ. ولكن لماذا حموه؟ لماذا لم يتقدم أحد من صفوف الشعب ليقول له هذا الكلام مع أنهم وجهوا إليه عبارات خشنة كثيرة فى سفر الخروج؟

الإجابة متضمنة فى الجملة الأولى «وحدث فى الغد» لقد وصلوا

بالأمس فقط، هذا هو أول يوم عمل، هذه هي المرة الأولى التي يحدث فيها هذا الاجتماع السياسي، لم يتبين بعد شعب إسرائيل القواعد التي سيحكم بها وهو يتطلع لمعرفتها، ولكن هناك خطراً بعيداً في خلفية المشهد فطن إليه حمو موسى فتدخل على الفور، كان حمو موسى على وعي بأن أي شعب يشعر براحة كبرى عند الإنعام عليه بالبطالة وانعدام المسئولية. أمر ممتع للغاية أن تجلس الناس على الأرض بلا عمل من الصباح حتى المساء مستمتعة بطرح مشاكلها وسماع مشاكل الآخرين.

إن الشعوب عندما تلمح أي بادرة للحكم الفردي تشعر بسعادة كبيرة ولا تطلب الإدارة العادلة الجيدة إلا عندما يصل بها الحكم الفردي إلى أبواب الجحيم، بل قد يؤجلون ذلك إلى أن يجدوا أنفسهم بين ألسنة اللهب في أعماق الجحيم نفسه، ومن المحتمل أن ترضى بعض الشعوب بنيران الجحيم باعتبارها قدراً لا فكاك منه، أو لأن أجهزة الإعلام أقنعتهم بأن البرد قاتل في الخارج.

أنا أقترب من الحدود المصرية.

سلك الحدود الشائك

فى أقصى الجنوب، أمتار تفصلنى عن الحدود المصرية، من مكانى أستطيع رؤية سلك الحدود الشائك وخلفه مزرعة تكسوها الخضرة. المكان تكسوه الرمال، هو موقع عسكرى تتناثر فيه بعيداً عنى عدة أكشاك، أحتسى القهوة وأتناول بعض قطع الكعك أمام كشك صغير محمّل على بلدوزر. صاحبة الكشك سيدة عراقية ومعها شاب صغير،

أصرت على أن تأخذ شيكلين ونصفا فقط ثمن القهوة، أما زجاجة المياه والكعك فهما مجاناً بوصفى ضيفاً، مصرايم.

اجعل السلك الشائك على يسارك.. بعد عدة مئات من الأمتار ستجد منفذ رفح.

ولكن قبل أن أعبر الحدود إلى مصر لدى رسالة إلى اليهود فى إسرائيل وفى العالم أجمع. المصريون لا يعرفون العنصرية، وأنتم لم تكونوا عبيداً عند الشعب المصرى.

وسأورد الأدلة على ذلك حالاً مستخدماً مستنداً ومرجعاً واحداً هو التوراة من خلال ما جاء فى سفرى التكوين والخروج تحديداً. وهى رسالة من كاتب مصرى يجيد القراءة أو يظن نفسه كذلك. فقد حدث من خلال قراءتى لسفرى التكوين والخروج أن عثرت على أدلة أكدت ما أفكر فيه وهى أن المصريين لا يعرفون العنصرية، وأنكم لم تكونوا عبيداً عند الشعب المصرى. ففى أحيان كثيرة، وجدت بين الشعوب القديمة أسوار من السلك الشائك وأحدثت جروحاً قديمة لا تلتئم مع الزمن وإن تصورنا ذلك. هى جروح تنتج آثاراً معطلة لمسيرة البشر حتى مع أصحاب العقول الكبيرة، فما نتخلص منه بالوعى قد يفلت من وعينا ليرقد بعيداً فى أعماق اللاوعى جاهزاً طوال الوقت للإعلان عن وجوده فى اللحظة التى يراها مناسبة.

من هذه الجروح القديمة، ولعله أكثرها ألماً، أنكم كنتم عبيداً عند

المصريين، وفي ذلك تعميم سأتصدى له بالشرح لجلاء الحقيقة التي أصر على التمسك بها وهي أن متاعبكم في مصر قبل الخروج كانت مع السلطة المصرية لأسباب سياسية وليست عرقية أو دينية. وأن علاقتكم بالشعب المصري كانت علاقة ندية ومساواة وود كبير.

وأبدأ بالقول أنه لا يوجد في العقل أو آليات التاريخ ما يحتم المسار الذي سار عليه. وأن الحتمية الوحيدة في مسار التاريخ عبر دروب طويلة مؤلمة وأحياناً مخجلة، هي حتمية الوصول إلى العدل.

وإذا كان من المستحيل تغيير حوادث التاريخ إلا أنه سيكون من الممكن دائماً فهمها على نحو أفضل على ضوء الطبيعة البشرية ومكوناتها من أجل مساعدته على ترشيد مساره والوصول سالماً لمحطته النهائية وهي الأسرة الإنسانية الواحدة. ليس متاحاً لنا أن نكتب ما حدث أو نعيد كتابته فقد كتب نفسه وانتهى الأمر، كما أنه من الصعب أن نفهمه على نحو مغاير لما قرره لنا الأجداد. ولكن الشرف الإنساني والمصلحة أيضاً يحتمان علينا قراءة وكتابة صفحاته البيضاء، تلك التي لم تكتب بعد. سأكون متساهلاً إلى الدرجة التي أقول فيها إننا جميعاً لسنا مسئولين عن صفحات التاريخ المكتوبة، ولكن من المؤكد أننا مسئولون عن الصفحات التي لم تكتب بعد، فلا أحد غيرنا فوق الأرض سيكتبها، وعندما نكتبها لا يجب أن نسمح له - للتاريخ - بأن يمارس هوايته القديمة المقيتة وهي أن يعمل جزاراً في أوقات الفراغ.

يجب أن نكف فوراً عن العمل عبيداً عند التاريخ، هو الذى سيعمل عندنا، هو الذى سينفذ رغباتنا، سنقول له كن، فيكون.

***

فى عام ١٩٩٠ فى أمريكا، فى اجتماع ضم يهوداً وعرباً، وجهت سؤالاً قادنى النقاش إليه وهو: دلونى على حادث اضطهاد واحد حدث ليهودى فى مصر قبل عام ١٩٤٨؟

وهنا نظرت إلىَّ سيدة يهودية بدهشة واستنكار وقالت: والعبودية التى لاقيناها على أيديكم فى مصر القديمة، كنا عبيداً عندكم وبنينا الأهرامات بالسخرة.

إن بيريز يطلب من اليهود القدرة على «مفارقة» بعض لحظات التاريخ من أجل المستقبل، أما أنا فأعرف جيداً مدى صعوبة ذلك على العقل البشرى، لذلك سيكون مطلبى أكثر تواضعاً وهو أن تكون لدينا الشجاعة والقدرة على قراءته بنزاهة عقلية، تقول التوراة، (الخروج، إصحاح ٣):

"Every woman is to ask her neighbor and any woman living in her house for articles of silver and gold and for clothing".

وتقول النسخة العربية: «بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهباً وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم».

لست فى حاجة لخيال كبير لكى أستحضر عناصر المشهد من أعماق التاريخ، أنتم لا تعيشون على أطراف المدينة أو القرية أو فى أحياء معزولة مخصصة لليهود، بل أنتم تسكنون معنا فى نفس أحيائنا، أنتم جيران لنا، بل وتسكنون معنا داخل بيوتنا. والعلاقة بيننا وبينكم تسمح للمرأة اليهودية أن تطلب من المرأة المصرية أشياء من فضة وأشياء من ذهب وملابس فتعطيها لها.

متى حدث فى طول التاريخ وعرضه أن جرؤ عبد على طلب أشياء من هذا النوع من سيده؟ هى عادة مصرية قديمة ما زالت موجودة فى الريف المصرى حتى الآن، الفلاحة المصرية تطلب من جارتها المصوغات والملابس الغالية لترتديها فى حفل زفاف أو مناسبة مفرحة ثم تعيدها إليها فى صباح اليوم التالى. عندما نوافق على أنكم كنتم عبيداً فى مصر فى ذلك الوقت فلا بد من تسجيل أن المصريين أيضاً كانوا عبيداً مثلكم ومعكم.

غير أننا لابد أن نتنبه للفخ الذى ينصبه لنا العقل أحياناً وهو الخلط بين المفاهيم عبر العصور، هل العبودية فى مصر كما ذكرتها التوراة هى نفسها الرق كما عرفته أوروبا وأمريكا فى عصور قريبة جداً تكاد تكون بالأمس؟ لن أجيب على ذلك إجابة قاطعة، فلا أحد قادر على ذلك. ولكن لنفكر معاً فى أقرب الإجابات إلى العقل ونحن نستعرض بعض ما حدث.

جاء سيدنا يوسف إلى مصر فاشتراه «بوتيفار» رئيس الحرس وهو ما يمكن أن نسميه بلغة هذه الأيام مدير الأمن العام لمصر الفرعونية كلها. ولنزاهته الخلقية وكفاءته الإدارية وثق فيه الرجل وترك له إدارة شئونه العامة والخاصة. لاحظوا أننى كمصرى عربى مسلم لا أستطيع أن أقول الاسم «يوسف» مجرداً، لابد أن أقول سيدنا يوسف، ولكن لسهولة السرد اسمحوا لى أن أذكر اسمه مجرداً بعد أن أكدت فى البداية أنه سيد لى. بعد ذلك تعرض يوسف لذلك الاختبار المؤلم مع زوجة الرجل واتهمته أنه تهجم عليها وحاول اغتصابها، فوضعه فى السجن، ليس أى سجن ولكنه سجن خاص بالمغضوب عليهم فى القصر الفرعونى. وهى عادة قديمة فى مصر ما زالت تمارس حتى الآن، أفراد السلطة أو القريبون منها عندما يسجنون لسبب أو آخر تخصص لهم أماكن خاصة داخل السجن العام.

الغريب أن مأمور السجن أيضاً ترك ليوسف إدارة السجن بالرغم من أنه واحد من نزلائه. نلاحظ أن يوسف لم يتعرض لعقاب بدنى من أى نوع وإلا كانت التوراة قد أوضحت ذلك. وأستطيع أن أستنتج أن «بوتيفار» رجل الأمن الذى تعامل من قبل مع عشرات الكاذبين والقتلة والمجرمين كان على يقين من أن زوجته كاذبة، وأن قصتها مختلقة، وأن يوسف برىء، ولكن كان لابد من إبعاده ووضعه فى السجن، فالبديل الوحيد لذلك هو عقاب الزوجة نفسها بما يترتب على ذلك من

فضيحة مدوية لرجل فى مثل هذا المنصب الخطير. فسلمه لمأمور السجن وهو بالطبع واحد من مرؤوسيه، ولأن مأمور السجن يعرف القصة بكل ملابساتها ويعرف أنه كفء ومظلوم ترك له إدارة شئون السجن. بعد ذلك سنراه يتولى إدارة شئون مصر كلها، رئيساً للوزراء ونائباً لفرعون بعد أن أعطاه خاتمه لتكون لديه حرية اتخاذ ما يشاء من قرارات.

هل تم تعيين يوسف العبد اليهودي الغريب في هذا المنصب لقدرته الخارقة فقط على تفسير الأحلام؟ أمر طيب بل معجز أن يتمكن إنسان من تفسير حلم البقرات العجاف والسمان وسنابل القمح. ولكن هل هذا هو ما حسم الأمر، أمر تعيينه في هذا المنصب؟ وهل كانت مراكز القوى في القصر الفرعوني من كهنة وغيرهم ستسمح بذلك؟ أم أن تعيينه جاء طبقاً لماضيه وكفاءته الإدارية ونزاهته العقلية والخلقية المعروفة جيداً بين أفراد الطبقة الحاكمة والتي تجعل زواجه من إبنة كاهن «أون» بعد ذلك أمراً طبيعياً.

لا أعتقد أن حضارة فى التاريخ سبقت المصريين القدماء إلى كراهية التفرقة العنصرية، أو سبقتهم إلى الإيمان بأهمية النزاهة العقلية والخلقية والكفاءة الإدارية، لا أحد وقف في القصر صائحاً أو همس في أذن فرعون: ولكنه يهودي يا مولاي.

ومع ذلك فقد قيلت هذه الجملة فعلاً، قيلت بعنصرية واستعلاء

واحتقار، ولكن من قالها وفي أي ظرف؟ هذا ما سنعرفه بعد قليل، بعد قراءة ما جاء في (سفر التكوين، الإصحاح ٣٩):

«وحدث بعد هذه الأمور أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف وقالت: اضطجع معي.

فأبى وقال لامرأة سيده: هوذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت وكل ماله قد دفعه إلى يدي، ليس هو في البيت أعظم مني، ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته، فكيف أصنع هذا الشر العظيم وأخطئ إلى الله؟

وكان إذ كلمت يوسف يوماً فيوماً أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها. ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت فأمسكت بثوبه قائلة: اضطجع معي.

فترك ثوبه في يدها وخرج إلى خارج. وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا، قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا، دخل إلى ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع إني رفعت صوتي وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج».

سأتوقف عند جملة واحدة: «قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا»

بينما النسخة الإنجليزية تقول: «هذا العبد اليهودى الذى جئتنا به» يتضح من ذلك أن مترجمى النسخة العربية يرون أن كلمة عبد تعنى شخصاً أو رجلاً، لأن البشر جميعاً عباد الله.

زوجة «بوتيفار» فقط هى التى تتكلم بشكل فيه عنصرية: «هذا العبد اليهودى الذى جئتنا به»، بمعنى الذى ابتليتنا به، وعنصريتها مفهومة، لقد فقدت صوابها بعد أن رفضها عبد وهى الحرة الأرستقراطية، لذلك لم تتورع عن تلفيق تهمة فظيعة له، ولكن حتى العنصرية ليست طبيعة أصيلة فيها بدليل أنها قد اشتهت هذا العبد اليهودى، وأظهرت ذلك وطلبته وأصرت عليه وأخذت تتحين الفرص لحدوثه.

أما فى القصر الفرعونى، حيث المسئولية والنضج العقلى فلا أحد قال: هل ستعين هذا الرجل العبرانى أو هذا العبد اليهودى فى هذا المنصب الخطير؟

لم يحدث ذلك لسبب بسيط. المصريون لا يعرفون العنصرية.

وينهمك يوسف بهمة ونشاط فى عمله الشاق لجمع الحبوب وتخزينها لمواجهة المجاعة القادمة، ويأتى إخوته إلى مصر طلباً للحبوب، من الواضح أن المجاعة شملت المنطقة كلها، ثم يأتون مرة أخرى فيدعوهم إلى القصر لتناول الطعام. وفى القصر يسألهم: «أسالم أبوكم الشيخ الذى قلتم عنه، أحى هو بعد؟

فقالوا: عبدك أبونا سالم، هو حى بعد.

وخروا ساجدين» .

عبدك أبونا ، هنا كلمة عبد قيلت على سبيل التهذيب ، تماماً كما كانت الناس إلى عهد قريب توقع خطاباتها ، خادمكم المطيع .

« ... وقال : قدموا طعاماً .

فقدموا له وحده ولهم وحدهم وللمصريين الآكلين عنده وحدهم ؛ لأن المصريين لا يقدرون أن يأكلوا طعاماً مع العبرانيين لأنه رجس عند المصريين» .

لنبحث الآن عن معنى كلمة (رجس) في اللغة العربية . المعجم الوسيط يقول :

الرَّجْسُ : الصوت الشديد . ورَجْسُ البعير : هديره .

الرِّجْسُ : القَذَر ، الشئ القذر ، الفعل القبيح ، الحرام ، اللعنة ، الكفر ، العذاب .

ورِجْسُ الشيطان : وسوسته .

وتقول النسخة الإنجليزية :

"Because Egyptians could not eat with Hebrews, for that is detestable to Egyptians".

وفي معنى كلمة : "Detestable" يقول «المورد» : مقيت ، بغيض أو كريه جداً .

الكلمة المستخدمة في النسخة العربية إذن أشد وطأة بكثير من الكلمة في النسخة الإنجليزية. بالطبع لن يدفعني حماسي للدفاع عن تحضر المصريين القدماء إلى الدرجة التي تجعلني أنفي عنهم هذا الاعتقاد أو هذا السلوك، ولكن لابد أن نأخذ في اعتبارنا أن هذا الوادي العجوز الذي عاش بعمر الزمن، وادي النيل، مرت عليه عهود طويلة من التحضر، وعهود أخرى من الانحطاط، وفي عصور الانحطاط من الممكن جداً أن تنتشر مثل هذه الأفكار بين العوام وخاصة في مناخ يسيطر عليه «إعلام الكراهية»، فمن المؤكد أنه لا مقدار للوحل الذي ينغرس فيه عقل الإنسان عندما يصاب بالانحطاط. أنا أعرف في هذا العصر وفي هذه المنطقة رجالاً ذوي نفوذ يشيعون بين الناس بوسائل إعلامية قوية أن مجرد مصافحة أصحاب الأديان الأخرى كفر.

ولكني لا أستطيع مقاومة الرغبة في إلقاء الضوء على هذا المشهد من وجهة نظر درامية بحتة ككاتب درامي مصري يتناول واقعة مشحونة بعناصر درامية حدثت في مصر في إطار العادات والتقاليد والسلوك المصري.

لقد دعا يوسف إخوته لتناول الطعام في قصره العظيم، قصر نائب فرعون، لم يخبرهم بعد أنه أخوهم، وفي القصر شعر برغبة جارفة في البكاء، هؤلاء هم إخوتي الذين أرادوا قتلي من قبل، أغلق على نفسه إحدى غرف القصر وبكى، تماسك، خرج إليهم في قاعة الطعام الكبيرة ثم قال: قدموا الطعام.

إنه المشهد الشهير في الأدب الشعبي في كل حضارات التاريخ القديمة، بإشارة من أعلى سلطة يبدأ الخدم في وضع الطعام والشراب. من الواضح أنه موعد روتيني وإجراء مألوف لدى خدم القصر، ينتهي يوسف من عمله يومياً في موعد محدد فيعود مع ضيوفه أو يسبقه ضيوفه إلى القصر، كل يوم في هذا الموعد هناك ضيوف مصريون وأجانب. سنفترض الآن أن المصريين يمقتون تناول الطعام مع العبرانيين لذلك قدم لهم الطعام وحدهم، فلماذا لم يتناول يوسف طعامه معهم، وهو يعلم وكل الموجودين من مصريين وعاملين في القصر أنه عبراني مثلهم؟ بالطبع لا أحد حتى هذه اللحظة يعرف أن هؤلاء الرعاة الأغراب هم إخوة يوسف، ولكن بالتأكيد مصر كلها تعرف أنه عبراني.

لنجرب فرضاً آخر، لنفرض أن أعلى درجات السلطة التي يمثلها يوسف أنست المصريين أو جعلتهم يتناسون أصله العبراني، وأنهم يعتبرونه كما يعتبر هو نفسه مصرياً. فلماذا لم يتناول طعامه مع المصريين؟ لماذا تناوله وحده؟

الواقع أن المشهد كما جاء في «التوراة» حدث بالضبط كما يجب أن يحدث. لو أنك استدعيت كاتب سيناريو مصرياً ومخرجاً مصرياً وأعطيتهما المشهد مكتوباً في جملة واحدة بلا عناصر أو مفردات «يوسف يتناول الطعام مع ضيوف مصريين وعبرانيين» لكتب السيناريست المشهد ولأخرجه المخرج كما حدث بالضبط، يوسف

وحده ، المصريون وحدهم ، العبرانيون وحدهم . ولكن لأسباب ليس من بينها مقت المصريين لتناول الطعام مع اليهود .

هى عادة مصرية قديمة ما زالت تمارس حتى الآن . عندما يتفاوت المستوى الاجتماعى بشكل حاد ، فإن صاحب المستوى الأدنى لن يشعر بارتياح عندما يتناول الطعام مع المستوى الأعلى ، لذلك لابد بدافع من الكرم من إتاحة الفرصة له ليأكل «على راحته» كما نقول فى مصر . عملية تناول الطعام فى مصر لها خصوصية شديدة ، بل إن هناك من يعتبر أن الأكل عورة وأنه لا يجب أن يراك أحد وأنت تأكل .

لى صديق هو الكاتب المسرحى بهيج إسماعيل ، لاحظت أنه عندما يكون ساهراً معنا فى مكان ويطلب طعام العشاء ، يقوم ليأكل بعيداً عنا على مائدة بعيدة ، عندما سألته عن السبب قال لى : منظر إنسان يأكل ليس من المناظر المحببة للنفس . هو باختصار يبتعد عنا ليأكل على راحته . وإلى عهد قريب جداً ، كما جاء فى رواية زقاق المدق لنجيب محفوظ ، رب الأسرة يوضع له الطعام بمفرده ، هناك صورة تقليدية صارمة للأب - الذى كان - ستمنع أهل البيت والأطفال من تناول الطعام على راحتهم ، لذلك يجب أن يتناول طعامه بعيداً عنهم .

وفى دمياط ، كان الدمياطى القديم يرتدى جلباباً له جيب على اليمين وفتحة كبيرة على الشمال ، وعندما يشترى طعاماً لأهل بيته يمسك به فى يده ويخفيه تحت الجلباب فى هذه الفتحة ، ويقولون : لا

يجب أن يعرف أحد ماذا ستأكل، قد يكون فخماً وغالياً وهو عاجز عن أن يأتي بمثله فتُشعره بالألم، وقد يكون طعامك متواضعاً جداً فتشعر أنت بالألم إذا اطّلع عليه أحد.

إخوة يوسف مجموعة من الرعاة القادمين من جوف الصحراء، والذين خروا سجّداً له منذ قليل، هل سيشعرون بارتياح وهم يتناولون طعامهم على مائدة واحدة مع صاحب أكبر منصب في مصر؟

أليس من كرم الضيافة أن يتركهم وحدهم ليأكلوا على راحتهم. إن الدليل على احترامه الكبير لهم هو أن الطعام قدم لهم في نفس القاعة الرئيسية التي تناول هو فيها طعامه. إن الأمر ليس خاصاً بهم لأنهم عبرانيون، بدليل أنه لم يجلس أيضاً إلى المائدة التي جلس إليها ضيوفه من المصريين وهم بالتأكيد من كبار موظفي الدولة.

لست أترافع في قضية خاسرة، فكل مستنداتي أصلية وأصيلة، وأدلتي قوية وإيماني بها كبير واعتقادي فيها راسخ وهي تثبت جميعاً أن المصريين ليسوا عنصريين وأنكم لم تكونوا عبيداً عند الشعب المصري.

***

باستخدام مفردات العصر أقول لكم: من آلاف السنين جئتم إلى مصر بدعوة من الحكومة المصرية وعلى نفقتها وبوسائل مواصلات مصرية مع ضمان الراحة والإعاشة والأمن أثناء الطريق ثم منُحتم الإقامة والأرض والخير (التكوين، إصحاح ٤٥).

«وسُمع الخبر فى بيت فرعون وقيل جاء إخوة يوسف، فحسن فى عينى فرعون وفى عيون عبيده».

أتوقف هنا لحظة واحدة لأتساءل: هل «عبيده» هنا تعنى رقيقه؟ أم تعنى كبار موظفى القصر؟

«فقال فرعون ليوسف: قل لإخوتك افعلوا هذا، حمّلوا دوابكم، وانطلقوا اذهبوا إلى أرض كنعان وخذوا أباكم وبيوتكم وتعالوا إلى فأُعطيكم خيرات أرض مصر وتأكلوا دسم الأرض، فأنت قد أُمرت، افعلوا هذا، خذوا لكم من أرض مصر عجلات لأولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم لأن خيرات جميع أرض مصر لكم».

لا أعتقد أن ملكاً فى التاريخ قدم مثل هذا العرض الكريم لجماعة من الناس، ولكنى أفهم ذلك بالطبع على ضوء الخدمات الجليلة التى قدمها يوسف للدولة، هو بالفعل يستحق كل ما أمر به فرعون إكراماً له ولأهله وتقديراً لدوره فى إدارة أزمة الجفاف فى مصر.

ويأتى سيدنا يعقوب وتأتون معه، ويتحقق لكم كل ما وعدكم به فرعون من قبل، خيرات مصر ودسم الأرض، وعندما يموت يعقوب فى مصر يتم تحنيطه طبقاً للعادات المصرية لمدة أربعين يوماً ويعلن عليه الحداد العام لمدة سبعين يوماً ثم ترافقه قافلة مصرية كبيرة لدفنه فى أرض كنعان تنفيذاً لوصيته (التكوين، إصحاح ٥٠).

«وصعد معه مركبات وفرسان فكان الجيش كثيراً جداً، فأتوا إلى بدر أطاد الذى فى عبر الأردن وناحوا هناك نوحاً عظيماً وشديداً وصنع لأبيه مناحة سبعة أيام، فلما رأى أهل البلاد الكنعانيين المناحة فى بدر أطا . قالوا: هذه مناحة ثقيلة للمصريين، لذلك دعى آبل مصرايم» .

من كان مرافقاً لجثمان يعقوب؟

كل المسئولين فى مصر الفرعونية، كل وجهاء القوم فى مصر. هذه هى الإجابة التى تقدمها التوراة .

مصرى عائد إلى مصر

بعد ذلك جاء الوقت الذى كنتم فيه عبيداً لفرعون، وكنا نحن أيضاً عبيداً عنده معكم ومثلكم، بغض النظر عن معنى العبودية في ذلك الوقت. أما أنكم عوملتم معاملة سيئة قبل الخروج فهذا ما أوافق عليه بشدة. ولكن علينا أن نفهم ما حدث من منظور سياسي وعلى ضوء آليات التاريخ ليس لتبريره ولكن لتفسيره - على ما أتصور - لنعرف أن

كل ما حدث كان طبيعياً بل ومحتماً.

نحن لا نوافق على البراكين والزلازل والفيضانات والمجاعات، وكل ما تسببه من عذاب وآلام للبشر، ولكننا جميعاً نعرف أنها لا تنتظر موافقتنا لكي تحدث، كما أن كراهيتنا لها لا تمنعها من الحدوث. كل ما هو متاح لنا كبشر هو البحث الهادئ عن القوانين التى تحدث بموجبها لكي نتعامل معها بأقل خسائر ممكنة.

استعدت مصر للجفاف، وأدار يوسف الأزمة ببراعة سياسية عالية وبجهد شاق. بالتأكيد بذل جهداً كبيراً في رسم خطة تخزين الحبوب في طول البلاد وعرضها ثم الإشراف على تنفيذها مع ملاحظة أن البشر في أوقات الرخاء يكرهون جداً مجرد التفكير في أن هناك جوعاً قادماً في الطريق. وحدث الجفاف، فجاء المصريون وحصلوا على الحبوب بعد أن دفعوا ثمنها. واستمروا في دفع ثمن ما يحتاجون إليه إلى أن انتهت من عندهم السيولة المالية. أفلسوا، لم يعد عندهم ما يدفعونه، هل سيعطيهم يوسف الحبوب مجاناً؟

كان لابد من مقابل وإلا انهارت حركة الاقتصاد في مصر كلها، وجاعت الناس في النهاية، بالتأكيد كان البعض سيحصل على نصيب كل الناس كما يحدث عادة في النظم السياسية التى توزع السلع مدعومة بشكل كلي أو جزئي. هنا كان من المحتم أن يقدم المصريون ما يملكونه من حيوانات وماشية مقابل الحبوب. ولكن الجهاز الهضمي في جسم

الإنسان للأسف لا يتوقف عن العمل، هو الآخر له قانونه الذى لا يمكن التحكم فيه أو تعديله. لابد للناس أن تأكل. مرة أخرى جاع المصريون ماذا يفعلون؟

قدموا أرضهم وقدموا أجسادهم أيضاً مقابل الطعام. ومنذ تلك اللحظة أصبحت أرض مصر كلها بما عليها من حيوان وبشر ملكاً لفرعون (التكوين، ٤٧).

«ولم يكن خبز فى كل الأرض، لأن الجوع كان شديداً جداً، فخورت أرض مصر وأرض كنعان من أجل الجوع. فجمع يوسف كل الفضة الموجودة فى أرض مصر وفى أرض كنعان بالقمح الذى اشتروا، وجاء يوسف بالفضة إلى بيت فرعون، فلما فرغت الفضة من أرض مصر ومن أرض كنعان أتى جميع المصريين إلى يوسف قائلين: أعطنا خبزاً، فلماذا نموت قدامك لأن ليس فضة أيضاً.

فقال يوسف: هاتوا مواشيكم فأعطيكم بمواشيكم إن لم يكن فضة أيضاً.

فجاءوا بمواشيهم إلى يوسف فأعطاهم يوسف خبزاً بالخيل وبمواشى الغنم والبقر وبالحمير فقاتهم بالخبز تلك السنة بدل جميع مواشيهم.

ولما تمت تلك السنة أتوا إليه فى السنة الثانية وقالوا له: لا نخفى عن سيدى أنه إذا فرغت الفضة، ومواشى البهائم عند سيدى، لم يبق قدام سيدى إلا أجسادنا وأرضنا، لماذا نموت أمام عينيك نحن وأرضنا جميعاً.

اشترنا وأرضنا بالخبز فنصير نحن وأرضنا عبيداً لفرعون واعط بذاراً لنحيا ولا نموت ولا تصير أرضنا قفراً.

فاشترى يوسف كل أرض مصر لفرعون، إذ باع المصريون كل واحد حقله لأن الجوع اشتد عليهم فصارت الأرض لفرعون. وأما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى حد مصر إلى أقصاه. إلا أن أرض الكهنة لم يشترها، إذ كانت للكهنة فريضة من قبل فرعون، فأكلوا فريضتهم التي أعطاها فرعون. لذلك لم يبيعوا أرضهم.

فقال يوسف للشعب: إني قد اشتريتكم اليوم وأرضكم لفرعون، هوذا لكم بذار، فتزرعون الأرض، ويكون عند الغلة أنكم تعطون خمساً لفرعون والأربعة الأخرى تكون لكم بذاراً للحقل وطعاماً لكم ولمن في بيوتكم وطعاماً لأولادكم.

فقالوا: أحييتنا، ليتنا نجد نعمة في عيني سيدي فنكون عبيداً لفرعون.

فجعلها يوسف فرضاً على أرض مصر إلى هذا اليوم، لفرعون الخمس، إلا أن أرض الكهنة وحدهم لم تصر لفرعون».

اسمحوا لي الآن أن أخرج عن موضوعي وسأعود إليه سريعاً. نحن نرتكب خطأ كبيراً عندما نتسامح مع هؤلاء الذين يفشلون أو يعجزون عن التعلم من دروس التاريخ باعتبارهم بلهاء أو أغبياء. الواقع أنهم أشرار يسعدهم التظاهر بالبلاهة والغباء. درس التاريخ هنا يقول: الفقر لا يدفع

الناس فقط للاستسلام للعبودية، بل ويجعلهم يجدّون في طلبها والسعي إليها والاستمتاع بها.

مع وجود الفقر تصبح العبودية هي الأمل الوحيد في النجاة. الحرية إذن تتحقق بخصوبة الأرض وبالثروة الحيوانية. وفي غياب الخصوبة، خصوبة الأرض والبشر والماشية من المستحيل على البشر أن يكونوا أحراراً. الحرية تصنعها الخصوبة، لذلك سنجد جمهوريات الرعب الغنية في المنطقة تبذل جهداً شاقاً ومبدعاً لتدمير ثروة بلادها وشعوبها لإفقارهم، وبهذه الطريقة وحدها تحولهم إلى عبيد، لأن البطش وحده في غياب الفقر لا يضمن تحولهم الكامل إلى العبودية. لكن لابد من شريحة واحدة يغلقون بها الإناء بإحكام على شعوبهم لمنع تسرب البخار، بخار التعاسة. شريحة يتوافر لديها كل شيء، هذه الشريحة لن يتم استعبادها بالفقر ولكن بسلاح أشد منه فتكاً وهو التهديد به. عند ذلك يتحولون إلى وحوش ضارية للدفاع عن العبودية وعن مستعبديهم.

أعود إلى موضوعي القديم الجديد، طائفة واحدة فقط أفلتت من الفقر والجفاف والعبودية واحتفظت بسلطتها وقوتها وحريتها وفريضتها التي فرضها لها فرعون من الحبوب والأرض: الكهنة.

هم أقوى من أعتى الكوارث، أقصد أنهم كانوا كذلك في مصر القديمة. هذه هي الصورة إذن، سلطة سياسية تملك الأرض وما عليها. غير أنه لابد من الاعتراف أن خمس المحصول ضريبة معقولة جداً

بالقياس لهذه الأيام. بل هي تبلغ حداً من العدل تصبو إليه كل النظم المتحضرة. ولكن لابد من الاعتراف أيضاً أن فقدان الملكية الخاصة يترك مرارة في الحلق وضغينة في القلب لا تمحوها الأيام.

من الواضح أيضاً أنه قد حدثت عمليات إعادة توطين لعدد من الناس، نقلوا من أرض إلى أرض أخرى «وأما الشعب فنقلهم إلى المدن من أقصى حد مصر إلى أقصاه»، بالتأكيد كان ذلك للصالح العام، ولكن الصالح العام تعبير لا يفهمه سوى الفلاسفة ورجال الدولة. أما الفلاحون فيتألمون فقط ولكنهم ينفذون في النهاية لأنهم ليسوا أحراراً.

***

ويموت يوسف رجل الدولة القوي، وتمر مئات الأعوام، وتبدأ الكارثة عندما يحدث تغيير في النظام السياسي، جاء فرعون آخر من أسرة أخرى، «ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هوذا بنو إسرائيل، شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينمو فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض» (الخروج، الإصحاح الأول).

من تقاليد الحكم الراسخة في الشرق الأوسط عموماً ووادي النيل خصوصاً، أن تمسح الأسرة الجديدة كل آثار الأسرة القديمة، وأن تهدم كل ما تبقى من أعمدتها، وأن تنهمك لسنوات طويلة في تطهير البلاد من «فساد» الحكم السابق، الذي يطلق عليه عادة اسم «العهد البائد». لدينا

ملوك فراعنة اكتفوا بمسح اسم الملك السابق من على آثاره ونسبوها لأنفسهم، هؤلاء أشعر تجاههم بالاحترام إلى حد ما، على الأقل هم اكتفوا بسرقة الأعمال ولم يهدموها، أما إذا تعلق الأمر «بتأمين النظام» فى حالة الحرب أو التهديد بحدوثها أو توهم حدوثها فإن إجراءات تأمين النظام تتطلب أول ما تتطلب حصار الأقلية والتضييق عليها بوصفها أعواناً محتملين للأعداء. ويسمونهم فى القاموس المعاصر الطابور الخامس أو عناصر الثورة المضادة أو أعوان الاستعمار أو ذيول الاستعمار أو عملاء الإمبريالية العالمية... ألخ.

«ثم قام ملك جديد على مصر»، هذا الملك لم يصل إلى العرش بشكل هادئ وطبيعى عن طريق الوراثة مثلاً، بل «قام» على مصر. نحن نقول قامت القيامة، قامت الحرب، قامت الثورة، قامت الدنيا ولم تقعد، هى كلمة تستخدم فى وصف وضع مفاجئ يتسم بالعنف. هو انقلاب فى نظام الحكم إذن، يعزز ذلك كلمة «جديد» يعنى لا صلة له بما سبق وليس امتداداً له. هو ملك جديد قام على مصر وعلى شعبها، هو ليس فرعاً من أصول سابقة بل هو جديد، وهو «لا يعرف» يوسف، يعنى لا يعترف به ولا بما أداه من خدمات جليلة للدولة، لسبب واضح، أن يوسف وأهله جميعاً من أتباع «العهد البائد» وأعمدته واجبة الإزالة. هذه هى القاعدة.

لذلك سنجد النسخة الإنجليزية تقول:

"Who did not know about Joseph".

كلمة "About" هنا ليس لها مقابل فى النسخة العربية، وتعنى «مايتعلق» بيوسف، كل شىء عن أعمال يوسف وتاريخه، وهو بالطبع لن يعترف بها أو به لأنه يمثل سلطة انقلابية جديدة من المحتم ألا تعترف بالقديم. الواقع أننى أجد النسخة الانجليزية أكثر تحديداً من النسخة العربية، هى تقول:

"Look, he said to his people. "the Israelites" have become numerous for us. Come, we must deal shrewdly with them or they will become even more numerous and if war breaks out, will join our enemies, fight against us and leave the country".

من السهل طبعاً بعد ذلك أن نتصور ماكينة الإعلام القوية وهى تدور فى القصر الفرعونى ومعابد الكهنة ودواوين المسئولين تحمل حواديت العدوان والكراهية والتخويف من الحرب المحتملة واحتمال تعاون العبرانيين مع الأعداء. ثم ما يترتب على ذلك من معاملة سيئة انتهت بالخروج من مصر. أما الشعب المصرى نفسه من الفلاحين فكانت تربطه بكم علاقات الود كما أوضحت من قبل فى واقعة طلب الذهب والفضة والملابس.

أليس هذا هو بالضبط ماحدث فى النصف الأول من القرن العشرين فى أقوى حضارة معاصرة؟ لقد حدث فى أمريكا بعد ضرب «بيرل هاربر» مباشرة أن اتُخذت إجراءات عنيفة ومهينة ضد الأمريكيين من

أصول يابانية لاحتمال تعاونهم مع الأعداء، وتمكنوا من الحصول على تعويضات بحكم من المحكمة الدستورية العليا بعد مرور أكثر من أربعين عاماً.

ولكن النص في العربية والإنجليزية والكلمات التي قيلت على لسان فرعون الجديد ليس فيها كلمة واحدة تدل على العنصرية والاحتقار، ليس في كلماته كلمة واحدة سيئة عن العبرانيين مما يحفل به الخطاب الأوروبي على مر العصور، هو في نهاية الأمر يستخدم مفردات علم السياسة بلا توجيه إهانة عنصرية واحدة من أي نوع.

إنني عندما أقف على ناصية آخر شارع من شوارع القرن العشرين وألقي نظرة على ما حدث فيه وما يحدث من مذابح مجنونة في أوروبا وفي أفريقيا وفي الشرق الأوسط، أتمنى لو عدت آلاف السنين إلى الوراء، لأستمتع بالحياة في مصر عندما كانت أكثر تحضراً وتسامحاً وعظمة.

قد يندهش القراء في مصر من اهتمامي بواقعة تاريخية قديمة كل القدم تلاشت من أذهان البشرية بكل آثارها، ولكني أقول لهم: إنني أرد بتوسع من خلال قراءتي وفهمي لنص «التوراة» على السيدة التي وجهت لي السؤال الاستنكاري في أمريكا وعلى عشرات الآلاف الذين يرون ماتراه ويعتقدون ما تعتقده. اللحظة القديمة عندهم تحيا مجاورة بل في حضن اللحظة المعاصرة. إنني أخاطب أصحاب العقول الجاهزة

دوماً لاستدعاء لحظات التاريخ القديمة ودمجها في سبيكة واحدة مع لحظات الحاضر بما قد ينتج عن ذلك من أخطار على الحاضر والمستقبل، بينما يظل الماضي وحده يحيا بعيداً في مأمن من الأخطار. لست أريد أخطاراً على الحاضر، ولست أريد آلاماً في المستقبل.

إن الدبلوماسي المصري اليهودي الذي قال لي: لقد خرجنا من مصر مرتين. وضع اللحظتين متجاورتين على قدم المساواة، هو لم يخرج من مصر في المرة الأولى، فقد حدث ذلك قبل أن يولد بآلاف السنين، ولكنه خرج في المرة الثانية عندما كان طفلاً صغيراً، ولكنه مازال يشعر بآلام الخروج في المرتين لأنه استدعى في ذاكرته اللحظة القديمة وألصقها باللحظة المعاصرة فضاعفت من ألمه.

لا يجب أن أقترب من أسلاك الحدود الشائكة أكثر من ذلك حتى لا تنغرس أسنانها في لحمي كما حدث في كل التاريخ مع أصحاب النوايا الطيبة.

أدرت الموتور وانطلقت بالسيارة تجاه سور الحدود، استدرت إلى اليمين، أسير على طريق غير معبد، سلك الحدود إلى يساري، هناك جنديان يقفان فوق برج المراقبة، ضغطت بقوة على دواسة البنزين، ضغطت على آلة التنبيه، تنبه الجنديان للوحة الأرقام المصرية فأخذا يصيحان ويهللان، لم أتوقف، أشرت لهما بذراعي محيياً، انطلقت بأقصى سرعة في اتجاه المنفذ مستمرا في الضغط على آلة التنبيه، لم

أستخدمها من قبل طول الرحلة، لماذا فعلت ذلك. ولماذا هلل الجنديان. ولماذا اندفعت الدموع في عيني؟

لا أعرف.

انتهيت من إجراءات الجمرك والجوازات الإسرائيلية، أقترب بهدوء من بوابة الحدود المصرية، مساعد شرطة واثنان من العرفاء، نهضوا واقفين وأخذوا ينظرون إليّ وإلى السيارة بدهشة. ناولت المساعد جواز سفري، ألقى عليه نظرة ثم قال لي متسائلاً: أيوه يا أستاذ؟

مرت علي لحظة شعرت فيها بالفزع، ثقتي منعدمة في البيروقراطية المصرية، من المستحيل أن يكونوا قد أصدروا في غيابي قراراً بعدم عودة المصريين من الخارج، قلت له بصوت حاولت أن أجعله طبيعياً: أيوه إيه يا بني؟.. دي عربية مصرية.. وأنا مصري راجع مصر.

مرت لحظات كأنها دهر اتصل فيها برئيسه فأعطاه الإذن بدخولي، فكرت في كلماتي، هل أنا حقاً عائد إلى مصر؟

والله ما غادرتها ولا غادرتني لحظة واحدة.

علي سالم

القاهرة - أغسطس ١٩٩٤

الفهرس

صفحة

عربية للطباعة والنشر

١٠٠٧ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨





لتكن الاتهامات الموجهة ضدى ما تكون فأنا واثق أن غالبية خصومى على وعى بأنهم يكذبون ، وهم جميعاً على يقين من أننى أعمل من أجل مصر والمصريين . وأنا آسف للألم الذى سببته لهم برحلتى ، فقد أرغمتهم على التفكير الحر المسئول ، والتعامل مع واقع جديد فى المنطقة يتطلب العمل الشاق والمعرفة والإبداع .

لم تكن رحلة حب ، بل هى محاولة جادة للتخلص من الكراهية . فالكراهية تمنع من التعرف على الواقع كما هو ، وتغلفه بأبخرة الشك والفزع وتشيع جواً من السلبية ينتعش فيه البلداء والعجزة وعشاق الخراب

على سالم